الفصل الرابع

منتخبات من آثار البارودى

١ ـ البارودى الناثر

فى الطريق إلى المنفى

يقول البارودى نثراً ، واصفاً طريقه إلى منفاه ، وما عاناه من البحر ، وآلام الفرقة ، ولوعة الغربة :

« إنى لمَّا أفْضَتْ بى غوائلُ الزَّمَن[1] ، إلى مفارقة الأهْلِ والوطن ، وحَقَّتْ كلمةُ الوَدَاع ، وأَنْصَتَ كُلُّ مُجيب وداعٍ ، سارت بأشْبَاحنا الفُلْك ، بتقدير مَنْ له المُلكُ ، فلمَّا توَسَّطْنَا لُجَّة اليَمِّ وغَشِيَتْنَا ضَبَابَةُ الْهَمِّ ، أخَذَ البحرُ يَهْدِرُ ويموجُ ، والرِّيحُ تَعْصِفُ وتَرُوجُ[2] ، والدَّجْنُ يُبْرِق ويُرْعِدُ[3] ، والموتُ يقرُب ويَبْعُدُ ، والفُلْكُ بَيْنَ صُعُودٍ وهُبوط ، والناسُ بَيْنَ رجاء وقُنوط ، فَشَخَصَتِ الأبصار[4] ، وغابت الأنصار ، وأقْبَلَ الفزعُ ، واستولى الجَزَعُ ، وشغلت الدموعُ المحاجِر ، وبَلغَتِ القلوبُ الحناجر ، هُنالكَ دعا رَبَّهمُ الغافلونَ ، وكَفَّتْ أذْيَالهم الرافلون[5] ، فلا تَرَى إلاّ ناكِسَ الطَّرْفِ لا ينبِسُ بحرف ، كأنَّما

---

(١) أفضت بى : أوصلتنى ، وأدت بى . وغوائل الزمن : دواهيه جمع غائلة .

(٢) راجت الريح اختلطت فلا يدرى من أين تجىء . ويهدر : من هدر البعير صوت فى غير شقشقة والمراد هنا صوت الأمواج المرتفع .

(٣) الدجن : الغمام المتكاثف ، أو المطر الشديد .

(٤) شخصت الأبصار : أدامت النظر لا تطرف .

(٥) كفت أذيالهم الرافلون : أى تطامن كبرياء هؤلاء الذين كانوا يطيلون الثياب ويجرون الأذيال كبراً .

أَظَلَّتْهُم الرَّجْفَة[١] ، أو غشيتهم الوَجْفَة[٢] ، فَهُمْ لِفَرْط الْحَيْرَةِ خمودٌ ، تحسبهم أيقاظاً وهم رقودٌ ، فلم يزلْ يتخبَّطنَا اليَمُّ ، ويأخذ بأكظامِنا الغمُّ[٣] ، حتى كادت الأنفس تَزْهَقُ ، وأظفارُ المنية تُرْهِقُ ، ونحن فى وعاء[٤] ، لا نملكُ غيرَ الدُّعاء ، وَكيف لنا بالخلاص ، ولات حينَ مناص[٥] ، فبعدَ لأىٍ ما[٦] سكنتِ فورةُ الريحِ ، وهدأتْ ثورة ابنُ بَرِيح[٧] ، وتجلَّت بنورها السماء ، واصطلح المـاء والهواء ، فقرَّت الأنفسُ فى الصدور ، وتنفس كلُّ مَصْدُور ، ولم يبقَ إلَّا سَوْقُ الحديثِ ، من قديم وحديث . والفلك يمخر البحر بجؤجئه[٨] ، ونحن من الشهر فى دُؤدئه[٩] حتى انتهى بنا الدبيب ، ولاحت عَيْنُ سرنديب[١٠] .

منـازلُ لم تألفْ بها النفسُ مَأْلَفاً ... على أن فيها كلَّ ما تشتهى النفس
ولا عَيْبَ فيها غيرَ أنْ ليس لى بها ... أنيسٌ ، وفقدُ الخِلِّ فى غُرْبةٍ حَبْسُ
وكيفَ يطيبُ العيشُ فى ظِلِّ بلدةٍ ... خَلَاء من الأُلَّاف ليس بها أُنْسُ

فدخلْتُها مَشْبُوب[١١] الأنين ، على الأَهْلِ والبنين ، لا أستطيعُ لما

---

(١) الرجفة : الزلزلة ، أو النفخة الأولى فى الصور يوم القيامة ، وأظلتهم : أتت من فوقهم .
(٢) الوجفة : الاضطراب الشديد .
(٣) أكظامنا : جمع كظم وهو مخرج النفس .
(٤) يقصد بالوعاء السفينة .
(٥) المناص : الملجأ ، ولات حين مناص : أى لا ملجأ لنا .
(٦) بعد لأى : بعد بطء وشدة .
(٧) ابن بريح : الغراب ، وهو عند العرب نذير الشؤم ، وهدأت ثورته كف عن النعيب .
(٨) جؤجؤ السفينة : مقدمها .
(٩) ودؤدؤ الشهر آخره .
(١٠) سرنديب : هى جزيرة سيلان التى فنى إليها الشاعر عقب الثورة العرابية .
(١١) مشبوب : من شبت النار اتقدت ومشبوب الأنين : أى أن أنينه مضطرم زائد .

عرانى دَفْعاً ، ولا أملكُ لنفسى ضَرًّا ولا نَفْعاً ، وما ظَنُّكَ بمَنْ غاب عنه السَّميرُ ، والْتَاعَ بالفُرْقَةِ منه الضميرُ ، فهو بَيْنَ هموم ناصبة ، وأحزان واصبة[1] وأَشْجَانٍ يَهلكُ لها الصَّبْرُ ، ومرارةٍ يحلو عندها الصبر ، إن نَطَقَ فبصَوتٍ لا يُدْرِكهُ السَّمْعُ ، أو نظر فبِعَيْنٍ مَلأَها الدَّمعُ .

غريبٌ تَخَطَّاه الأساةُ فمــا لَه ... سوى عبراتِ الْمُقْلَتين طَبِيبُ[2]

وما أَسَفِى أنِّى غريبٌ عن الحمى ... ولَـكِنَّنى بَيْنَ الأنام غريبُ

٢ ــ البارودى الشاعر المقلد

ا ــ النسيب

من ألوان الغزل التى جاءت فى شعر البارودى ذلك الغزل الذى يذكر فى أوائل القصائد وسميناه النسيب ، وهو غزل تقليدى لا روح فيه ولا حرارة للحب . ومن أمثلة ذلك القصيدة الآتية التى عارض فيها المتنبى فى قصيدته التى مطلعها :

أمِنَ ازْدِيارِكِ فِى الدُّجى الرُّقباء ... إذْ حيث كنتِ من الظلامِ ضياء

وقد قالها فى مدح أبى على الأوارجى الكاتب :

قال البارودى :

صِلَةُ الْخَيالِ على البِعادِ لِقــاء ... لَوْ كانَ يَملكُ عَيْنِىَ الإغْفاء[3]

يا هَاجِرى مِنْ غيرِ ذَنبٍ فى الهوى ... مَهلًا فَهَجْرُكَ وَالْمَنُونُ سواء[4]

أغْرَيتَ لَحْظَك بالْفُؤَادِ فَشَــفَّهُ ... وَمنَ الْعيونِ عَلَى النفوسِ بَلاء[5]

---

(١) واصبة : أى تجلب المرض ، أو دائمة مستمرة .

(٢) الأساة : جمع آس وهو الطبيب .

(٣) الإغفاء : النعاس .

(٤) المنون : الموت .

(٥) شفه : هزله وآلمه .

هِي نَظرةٌ فامنُنْ عَلَيَّ بِأُختِها ... فالخمرُ من ألَمِ الخُمارِ شِفاءُ[1]

أنا منكَ مَطْوِيُّ الفؤاد على جَوًى ... لولا الدُّموعُ ذَكَتْ بهِ الْحَوباءُ[2]

لا أنتَ تَرْحَمُنِي ، ولا نار الْهَوَى ... تخبو ، ولا للنفسِ عَنكَ عَزَاءُ

فانظُرْ إلَيَّ تجدْ خَيالَةَ صورةٍ ... لَمْ يَبقَ فيها للحياة ذَمَاءُ[3]

رَقَّتْ لِي الورقَاءُ فِي عَذَباتِها ... وَبَكتْ عَلَيَّ بِدمعِها الأَنْدَاءُ[4]

وتحدَّثتْ رُسلُ النسيمِ بِلوْعَتِي ... فَلكلِّ غُصنٍ نحوها إصغاءُ

كَلَفٌ تَنَاقلَهُ الْحَمَامُ عَنِ الصَّبا ... فَصَبَتْ إليه الْغِيدُ والشعراءُ[5]

فَبِقلبِ كُلِّ فتى غرامٌ كامنٌ ... وبِعطفِ كلِّ مَليحة خُيَلاءُ[6]

فَدَعِ التَّكهُّنَ يا طَبِيبُ فإنما ... دائِي الهوى ، ولِكُلِّ نَفسٍ داءُ

ألَمُ الصبابة لذةٌ تَحيا بِهـا ... نَفسِي وَدائِي لو علمتَ دَوَاءُ[7]

وَبُمُهْجَتِي ، رَشَئِيَّةٌ مِن دونها ... أُسْدٌ لَهَا قَصَبُ الرِّياح أَباءُ[8]

---

(١) الخمار (بضم الخاء) : ما يصيب المخمور من الصداع وأذى الخمر .

(٢) الجوى : شدة الوجد بالمحبوب ، وذكت : اشتعلت والمراد ملكت وأصله من ذكت النار إذا اشتد لهيبها . والحوباء : النفس .

(٣) الذماء : الحركة وبقية النفس .

(٤) الورقاء: الحمامة فى لونها بياض إلى سواد . والعذبات: الأغصان . والأنداء : جمع ندى وهو البلل والمطر .

(٥) كلف : ولوع وعشق . والصبا : ريح تهب من مطلع الشمس عند العرب وهى أحب الرياح إليهم . والغيد : جمع غيداء وهى المرأة الناعمة اللينة .

(٦) العطف : الجانب . الخيلاء : الزهو .

(٧) هذا البيت تضمن معنى قول أبى نواس فى الخمر : « فداوِنى بالتى كانت هى الداء » .

(٨) المهجة : دم القلب ، أو الروح ، والمراد أنه يفديها بنفسه ، أو أن صورتها وحبها ملء قلبه . ورشئية : نسبة إلى الرشأ وهو الظبى أى الغزال إذا قوى ومشى مع أمه ، وتشبه به الحسناء فى جمال العينين والجيد والرشاقة ولطف الحركة . والأباء (كسحاب) : الأجمة . ويريد أنها ممنوعة يحول بينها وبينه حراس أيقاظ أشداء كالأسد يصونونها فى شبه أجمة من الرماح .

هَيفاء مَال بها النَّعيمُ ، فخطْوُها ... دُون القَطاةِ ، ونُطْقُها إيمـــاء[1]
تَرنُو بأحْورَ ، لو تَمكَّنَ لحظُـه ... من صَخرةٍ لارَفضَّ منها الماء[2]
حَكم الجمالُ لها بما تختـــارهُ ... فتَحَكَّمَتْ فى النَّاس كيف تشَاء

ب — الفخر

بعد وصول البارودى إلى « سرنديب » منفياً رأى بنته الوسطى سميرة فى المنام، فهاجه الشوق إلى مصر ، وتذكر أيامه الحلوة ، كما تذكر مصارعته للرجال وأحداث الزمان . وقد تطرق من كل هذا إلى الفخر بخلاله وجلده وشجاعته ، وأنهم حسدوه لعلو مكانته وكريم صفاته .

عَلَىَّ طِلابُ العزِّ مِن مُســـتقرِّهِ ... ولا ذَنْبَ لِى إن عارَضتنى المقادرُ[3]
فما كُلُّ محـــاولِ العريكةِ خائبٌ ... وَلا كلُّ مَحْبوكِ التريكة ظافرُ[4]
فمـــاذا عسى الأعداء أن يتقوَّلوا ... عَلَىَّ وَعِرْضى ناصِحُ الْجَيب وَافرُ[5]
فَلى فِى مَرَاد الْفضلِ خيرُ مَغبَّةٍ ... إذا شانَ حيًّا بالخيانة ذاكِرُ[6]
مَلَـكْتُ عُقاب الملكِ وَهى كسيرةٌ ... وَغادرتُها فى وكرِها وَهْى طائرُ[7]
ولو رُمتُ ما رامَ امرؤٌ بخيـــانةٍ ... لَصَبَّحَنى قِسطٌ من المالِ غامِرُ

---

(١) هيفاء : ضامرة البطن رقيقة الخصر . والقطاة : نوع من الحمام .
(٢) ترنو : تنظر ، وأحور : صفة من الحوَر وهو شدة بياض العين فى شدة سوادها ، وارفض : خرج .
(٣) الطلاب : الطلب . وهذا البيت مأخوذ من قول أبى فراس الحمدانى المتوفى سنة ٣٥٧ هـ

على طلاب العـــز من مستقره ... ولا ذنب لى إن حاربتنى المطالب

(٤) العريكة : النفس والطبيعة . ومحبوك : متقن . والتريكة : بيضة الحديد للرأس كالخوذة . ومحبك التريكة كناية عن القوة ، والمعنى : أن المادير قد تسعد الضعيف فيفوز ، وتعترض الكمى الشجاع فلا يظفر .
(٥) ناصح الجيب : نقى خالص . ووافر : تام .
(٦) مراد الفضل : محاله . والمغبة : العاقبة . وشان : عاب .
(٧) العقاب : طائر من جوارح الطير ويعنى بعقاب الملك الوزارة ، وأنه تولاها وهى معوجة وتركها وهى مستقيمة .

ولكن أبتْ نفسى الكريمةُ سوأةً ... تُعابُ بها والدهرُ فيه المَعايرُ[١]

فلا تحسبنَّ المالَ يَنفعُ ربَّهُ ... إذا هو لم تَحْمَدْ قِراهُ العشائرُ[٢]

فقد يَسْتَجِمُّ المالَ والمجدُ غائبٌ ... وقد لا يكونُ المالُ والمجدُ حاضرُ[٣]

ولو أنَّ أسبابَ السِّيادةِ بالغِنى ... لَكاثر ربَّ الفضلِ بالمالِ تاجرُ[٤]

فلا غَرْوَ أن حزتُ المكارمَ عارياً ... فقد يشهدُ السيفُ الوَغَى وَهْوَ حاسرُ[٥]

أنا المرءُ لا يَثنيهِ عن دَرَكِ العُلا ... نَعيمٌ ، ولا تَعْدو عليه المفاقرُ[٦]

قَئُولٌ وأحلامُ الرِّجال عوازبٌ ... صَئُولٌ وأفْواهُ المنايا فواغرُ[٧]

فلا أنا إن أدنانِيَ الوُجدُ باسمٌ ... ولا أنا إن أقْصَانِيَ العُدْمُ باسرُ[٨]

فإن كنتُ قد أصْبحتُ فَلَّ رَزِيَّةٍ ... تَقَاسَمها فى الأهلِ بادٍ وحاضرُ[٩]

فكم بطلٍ فَلَّ الزَّمَانُ شَبَاتَهُ ... وكم سَيِّدٍ دارت عليه الدّوائرُ[١٠]

---

(١) المعاير : المعايب .

(٢) القرى : ما يقدم للضيف .

(٣) يستجم : يجتمع .

(٤) كاثره : غالبه فى الكثرة .

(٥) عاريا : بلا مال . وحاسر : مكشوف مجرد من غمده .

(٦) درك : بمعنى إدراك الشيء . المفاقر : وجوه الفقر وأحواله . ومعنى الشطر الثانى أن الفقر لا يغير خلقه .

(٧) قئول : لسن فصيح . وعوازب : غائبة وذاهبة وكنى بعزوب الأحلام عن اشتداد الخطب وتعقد الأمور . وصئول : فاتك شجاع . وفواغر : مفتوحة .

(٨) الوجد : الغنى . وباسر : عابس الوجه .

(٩) فل : مصدر بمعنى منهزم أو مكسور . ورزية : مصيبة . وباد : من أهل البادية .

(١٠) فل : كسر وثلم . وشباة كل شيء : حده . والدوائر : النوائب والنوازل .

ج — الحكمة

اشتهر بعض الشعراء القدامى بالحكمة يودعونها أشعارهم فقال البارودى يحاكيهم :

مَنْ طلبَ العِـــزَّ بلا آلة ... أدْرَكَهُ الذُّلُّ مَكَانَ الظَّفَرْ
فاصْبِرْ على المكروه تظفَرْ بما ... شئتَ فقد حازَ المُنى مَنْ صَبَرْ
وَقِفْ إذا ما عَرَضَتْ شُبْهَةٌ ... فاللُّبْثُ خَيْرٌ مِنْ رُكوبِ الغَرَرْ(١)
وَلا تقولَنَّ لشيء مَضَى ... يا ليتَه دام وخُـــذْ ما حَضَر
ولا تعـــامِلْ صاحباً بالتى ... تَرْجِعُ عَنْها تَائباً تَعْتَذِرْ
وَغُضَّ طَرْفَكَ إنْ خِفْتَه ... فحاجِبُ الشَّهْوَةِ غَضُّ الْبَصَرْ

د — الوصايا

بادِرِ الفُرصةَ واحذرْ فوتهـا ... فبلوغُ العِزِّ فى نَيْلِ الْفُرَصْ
واغتنِمْ عُمْرَكَ إبَّانَ الصِّبَا ... فهْوَ إنْ زادَ مَعَ الشيبِ نَقَصْ(٢)
إنَّما الدُّنيا خيـــالٌ عارضٌ ... قلَّمَا يَبْقَى ، وأخْبارٌ تُقَصْ(٣)
تارةً تَدْجو ، وطوراً تَنْجـلى ... عادةُ الظِّلِّ سَجَا ثم قَلَصْ(٤)
فابتدرْ مَسْعَاكَ ، واعْلَمْ أن مَنْ ... بادر الصيد مع الفجر قَنَصْ
لن ينـــالَ المرء بالعجز المُنَى ... إنما الفوزُ لمن هَمَّ فَنَصْ(٥)

---

(١) الغرر : الخطر والتهلكة وهو اسم من غرر المرء بنفسه تغريراً أى عرضها للهلاك والضرر .

(٢) إبان الصبا : وقت الصغر .

(٣) تقص : تحكى . وحذف التشديد للشعر .

(٤) تدجو : تظلم والمراد تسوء . وسجا : امتد وسكن ودام . وقلص : انقبض وانزوى .

(٥) فنص : المراد أنفذ ما هم به ، من قولهم : نص الرجل ناقته إذا استخرج أقصى ما عندها من السير . نص الشيء : حركه . ونص فلان فلاناً : إذا استقصى مسألته عن الشيء .

بكدحُ العـــاقلُ فى مَأمَنِه ... فإذا ضَاقَ به الأمرُ شَخَصْ[١]

إنَّ ذا الحاجَة ما لَمْ يَغْتَرِبْ ... عَنْ حِماهُ مثلُ طَيْرٍ فى قَفَصْ[٢]

ولْيَكُنْ سَعْيُكَ مجداً كُلُّه ... إنَّ مَرْعَى الشَّرِّ مكروهٌ أَحَصْ[٣]

واتْرُكِ الْحِرْصَ تَعِشْ فِى رَاحَةٍ ... قَلَّما نَالَ مُنَاهُ مَنْ حَرَصْ

قَدْ يَضُرُّ الشىءُ تَرْجو نَفْعَه ... رُبَّ ظَمْآنَ بِصَفْوِ الماء غَصْ[٤]

مَيِّزِ الأشـــياءَ تَعْرِف قَدْرها ... ليستِ الغُرَّةُ مِنْ جِنْسِ الْبَرَصْ[٥]

واجتنب كُلَّ غَبِيٍّ مائِقٍ ... فَهْوَ كالْعَيرِ إذا جَدَّ قَمَصْ[٦]

إنمـــا الجاهِلُ فى العينِ قَذًى ... حيثُما كَانَ وفى الصَّدْرِ غَصَصْ[٧]

واحْـــذَرِ النَّمَّامَ تأمَنْ كيدَه ... فَهْوَ كالْبُرْغوثِ إنْ دَبَّ قَرَصْ

يَرْقُبُ الشَّرَّ فإنْ لاحَتْ له ... فُرْصَةٌ تَصْلُحُ لِلْخَتْلِ قَرَصْ[٨]

ساكِنَ الأَطْرافِ إلا أنه ... إن رأى مَنْشَبَ أُظْفُورٍ رَقَصْ

واختبرْ مَنْ شئتَ تَعْرِفْه فما ... يَعْرِفُ الأخلاقَ إلّا من فَحَصْ

هـــذه حكمة كَهْل خابر ... فاقتنصْها فهى نعم المُقْتَنَصْ[٩]

---

(١) شخص : انتقل وارتحل وهاجر .

(٢) كثيراً ما حبب الشعراء إلى الناس السفر وافتنوا فى تشبيه المقيم والراحل كقول ابن الوردى :

وبمكث الماء يبقى آسناً ... وسرى البـــدر به البدر اكتمل

(٣) الأحص : النكد المشئوم الوبيل الذى لا خير فيه .

(٤) غص بالماء : شرق به أو وقف فى حلقه فلم يكد يسيغه .

(٥) الغرة : بياض مستحسن فى جبهة الفرس . والبرص : بياض يظهر فى ظاهر البدن لفساد مزاجه ، وهو من الأدواء البشعة الفظيعة .

(٦) مائق : أحمق سيء الخلق . والعير : الحمار . وجد فى السير : أسرع . وقمص : وثب ونفر .

(٧) والغصص : مصدر من غصصت بالطعام والشراب ، الغصة : ما غص به الإنسان من طعام ، قد يسمى الغيظ غصة على التشبيه .

(٨) فرص الفرصة : انتهزها وأصابها .

(٩) الكهل : الرجل إذا وخطه الشيب أى خالطه والمراد المجرب العاقل .

٣ ـ البارودى الشاعر المجدد

ا ـ الشاعر العاطفى

لقاء

أكثر البارودى فى شبابه من شعر الغزل ، ولا بدع فقد كان شاعراً فارساً ذا مال وجاه . وهو من أبناء الطبقة الحاكمة . أضف إلى كل هذا كثرة ما وعته ذاكرته من الأدب العربى ، والغزل فيه من أهم ما قصد إليه الشعراء ، فتشبعت به مخيلته . وكان شعره الغزلى يأتى أحياناً فى أول القصيدة على عادة جمهرة شعراء العربية وهو المعروف بالنسيب ، وأحياناً يفرد له قصائد خاصة . ومن القصائد التى أفردها للغزل القصيدة الآتية ، وهى تدل على السمات العامة لهذا الغزل :

لَوَى جِيدَهُ وانْصَرَفْ ... فَمَا ضَرَّه لَوْ عَطَفْ[1]
غَـــزَالٌ لَهُ نَظْرَةٌ ... أعانَتْ عَلَىَّ الْكَلَفْ[2]
تبسَّمَ عن لُؤْلُؤٍ ... لهُ مِن عَقيقٍ صدفْ[3]
وَتَاهَ فـــلم يلتفتْ ... وشأْنُ الجمالِ الصَّلَفْ[4]
جرى البَنْدُ فى خصرِه ... عَلَى حركاتِ الهَيَفْ[5]
وَما ذاكَ خالٌ بدا ... ولـكنْ وسامُ التَّرَفْ[6]

---

(١) الجيد : العنق . ولوى جيده : كناية عن الإعراض والصد .

(٢) الكلف : الغرام والهوى والحب الشديد من كلف بالشىء إذا أغرم به .

(٣) يريد باللؤلؤ : الأسنان ، وبالعقيق : اللثة ، والعقيق حجر كريم تتخذ منه فصوص الخواتم ويكثر باليمن وأجود أنواعه الأحمر . والصدف : غشاء الدر وغلافه والواحدة صدفة .

(٤) تاه : تكبر من التيه وهو الكبر . والصلف : التمدح بما ليس عندك والمراد به هنا الكبر .

(٥) البند : كلمة فارسية معربة ، ويراد بها هنا المنطقة والحزام وشبههما . والخصر : الوسط . والهيف : رقة الخصر وضمور البطن وهو من محاسن النساء .

(٦) الخال : شامة أو نكتة سوداء تكون فى خد الإنسان وقد تصنعه المرأة للزينة . والوسام : فى الأصل العلامة توسم بها الدابة وقد استعمل حديثاً فيما ينعم به الملوك على المستحقين للتكريم كالأنواط ونحوها . والترف : النعيم والرفاهية .

رآنى به مُولَعاً فعـــاتبنى وانحرفْ[١]
ولم يدرِ أنى به عَلَى جمـــراتِ التلفْ[٢]
فقلتُ لهُ ســـيِّدى ! ترفَّقْ بصبٍّ دَنِفْ[٣]
فقـــال : أخافُ العِدَا فقلتُ له : لا تخفْ
فإنِّى عفيـــفُ الهوَى وَمَا كلُّ صَبٍّ يعفْ
وأنشدْتهُ قطعـــةً وَشعرىَ إحدى الطرَفْ[٤]
فأصغى لهـــا باسماً وَبانَ عليهِ الأسفْ[٥]
ونَمَّتْ بهِ خجـــلةٌ تدلُّ عَلَى ما اقترفْ[٦]
وقال : أهذا الضنى جناهُ عليك الشغفْ[٧]
فقلتُ : نعمْ سيدى ! وَأبرحُ ممَّا أصفْ[٨]
فصـــدَّق لـكنَّهُ تجاهلَ لمَّا عرَفْ[٩]

---

(١) مولعاً : مغرماً .
(٢) به : بسبب تعلق به .
(٣) دنف : براه المرض حتى أشرف على الموت . والصب : المحب العاشق من الصبابة وهى حرارة الشوق ورقة الهوى .
(٤) أنشدته : قرأت له بصوت مرتفع ، والطرف : جمع طرفة وهى الشىء المستحدث الطريف الممتع العجيب .
(٥) أصغى لها : مال بسمعه لها . والأسف : الحزن الشديد ، ويظهر أن القطعة كانت تتضمن وصف ما يلاقيه الشاعر من الوجد واللوعة .
(٦) نمت : ظهرت . وخجلة : اسم مرة من الخجل وهو التحير والدهش من الاستحياء . واقترف الذنب : أتاه وفعله .
(٧) الضنى : مرض مخامر كلما ظن برؤه نكس . والشغف : من شغفه الحب أى أحرق قلبه أو أمرضه ، أو اخترق شغاف قلبه وهو غلافه وحجابه .
(٨) أبرح : أشد برحاً (بفتح فسكون) ، وشدة وعذاباً ، وهو اسم تفضيل على غير قياس من قولهم : برح به الشوق والهوى ، أى قوى واشتد .
(٩) تجاهل : أظهر الجهل .

وقالَ : أطعْتَ المُنَى وبعضُ الأمانى سَرَفْ[١]
وما كلُّ ذى حاجةٍ يفوزُ بها إنْ عكفْ[٢]
فأشفقتُ من قَولِهِ ولكنَّ ربِّى لطفْ[٣]
فلمَّا رَأَى أدْمُعِى توالتْ ، وقلبى رَجفْ[٤]
تبسمَ لى ضاحكًا ومانَعَ ثمَّ انعطفْ
فأغرَمْتُهُ قُبلةً « عفا اللهُ عمَّا سلفْ »[٥]

قلب مشتَّت

وهذه أيضاً زفرة من شعر البارودى العاطفى :

سَمِعَ الخلىُّ تأوُّهِى فتَلَفَّتَا وأصَابَهُ عَجَبٌ فقَالَ : مَنِ الفتى ؟[٦]
فأجبتُه إنى امرؤٌ لَعِبَ الأسى بِفُؤَادِه يومَ النَّوَى فتشتَّتَا[٧]
انظر إلىَّ تجدْ خيالا باليًا تحت الثياب يكاد ألَّا يُنعتَا[٨]
قد كان لى قلبٌ أصابَ سوادَه سهمٌ لطرْفٍ فاترٍ فتفتَّتَا

---

(١) المنى : جمع منية (بضم فسكون) وهى ما يتمناه الإنسان ، ومثلها الأمنية . والسرف : مجاوزة القصد وضد الاعتدال كالإسراف .
(٢) عكف على الشىء : أقبل عليه مثابراً مواظباً .
(٣) أشفقت : خفت وجزعت .
(٤) توالت : تتابعت . ورجف : خفق واضطرب .
(٥) أغرمته قبلة : المراد قبلته ولثمته ، وقد جعل القبلة كالغرامة التى يلزم أداؤها ، وكأنه يطلب الرد ، وسلف : مضى وذهب . والشطر الثانى : اقتباس من القرآن (الآية ٩٥ سورة المائدة) .
(٦) الخلى : الخالى من الهم والعشق .
(٧) الأسى : الحزن . النوى : الفراق . وتشتت : تفرق .
(٨) ينعت : يوصف . طالما وصف شعراء العرب النحول وبالغوا فيه مبالغات لا نستحسنها فى هذا العصر كقول بشار : =

تبِـعَ الهوى قلبي فهامَ وليتَـــه ... قبل التوغّلِ فى البلاء تَنَبّتا
ألْقتهُ فى شَرَكِ المحبـــةِ غادةٌ ... هيْفاء ، ليس بصاحبي إن أفْلتا
كالورد خـــدًّا ، والبَنَفسَج طُرَّةً ... والغصنِ قَدًّا ، والغزالةِ مَلْفِتَا[1]
نَظَرَتْ بكَحْلاوَيْنِ أوْدَعَتا الهوى ... بالقلبِ حتى هام ثم تخـــلّتا
تاللهِ لو عَلِمَ العـــذولُ بما جنى ... طرْفى عَلَيَّ لساءهُ أن يَشْمَتا
طرْفٌ أطَلْتُ عِنانه ليُصِيبَ لى ... بعضَ المنى فأصابنى لمّـــا أتى[2]
يا قلبُ حَسْبُكَ ، قد أفاقَ مَعَاشِرٌ ... وَأراكَ تَذْأبُ فى الهوى فإلى متى ؟

حرقة الهجر

ولا بد للعاشق الصب أن يتغلب على جهاد الوصل والهجر فقال البارودى يصف لوعة الهجر وحرقته :

ما أطولَ اللّيلَ على الساهر ... أمَا لهذا الليـــلِ من آخرِ ؟
يَا مُخْلِفَ الوعدِ ألا زَوْرَةٌ ... أقضِى بِهَا الحقَّ من الزائرِ[3]

= إن فى بردى جسما ناحـلا ... لو توكأت عليـه لانهدم

أو كقول المتنبى :

روح تردد فى مثل الخلال إذا ... أطارت الريح عنه الثوب لم يبن

أو كقول ابن الفارض :

قل تركت الصب فيكم شبحاً ... ما له مما براه الشـوق فى
كهـلال الشك لولا أنـه ... أن عينى عينـه لم تتـأى

(١) الطرة : الشعر الموفى على الجبهة تطره الجارية أى تسويه وتعدله وتصففه ، وتشبيه الطر بالبنفسج غير مألوف ، ولعله يشير إلى ما فى الطرة من رائحة ذكية ، أو يقصد تشبيهها بطاقة البنفسج فى النعومة والغزارة .

(٢) أراد أن يمتع نظره برؤية هذه الحسناء ففتنته محاسنها ووقع فى شرك حبها .

(٣) الزورة : اسم مرة من الزيارة .

تركْتَنى من غمراتِ الهوى ... فى لُجِّ بَحرٍ بالرَّدَى زاخِرِ (١)
أسمعُ فى قلبى دبيبَ المنى ... وألمحُ الشُّبهةَ فى خاطرى (٢)
فتارةً أهـــدأُ من رَوْعَتى ... وتارةً أفْزَعُ كالطائرِ (٣)
وَبَيْنَ هاتيْنِ شَـــبا لوْعَةٍ ... لها بقلبى فَتْكَةُ الثَّائرِ (٤)
فهلْ إلى الوصـــلةِ منْ شافِعٍ ... أمْ هل على الصَّبوَةِ من ناصرِ (٥)
يَا قلْبُ لا تَجزَعْ فإنَّ المنى ... فى الصبر ، واللهُ مع الصابرِ

شوق وحنين

نفى البارودى بعد أن أخفقت الثورة العرابية إلى جزيرة « سرنديب » من جزر المحيط الهندى فى ديسمبر ١٨٨٢ وظل بها منفياً سبعة عشر عاماً ، ولم يمض عليه يوم ولم تذب فيه نفسه حسرة على غربته ومآله ، وحنيناً إلى وطنه وأهله . وقد كان هذا النفى ذا أثر بالغ فى شعر البارودى ، لفرط حساسيته ، وشعوره بالظلم والقسوة لأنه كان يريد الخير لوطنه ولكنه جوزى عليه شر جزاء وفى ذلك يقول :

فهل دِفاعِيَ عَنْ دِينِي وَعَنْ وطنى ... ذنبٌ أُدَان بهِ ظُلْماً وأغْتَرِبُ

ولقد قال وهو فى المنفى قصائد غاية فى الجودة والرقة تفيض شوقاً وحنيناً إلى مصر . وكلما مرت به الأيام ، وتقدمت به السن ، زاد ضرام هذا الشوق ففاضت شاعريته ، ومما زاده رقة وتأثيراً ما كان يبلغه وهو فى منفاه من موت أصدقائه الواحد تلو الآخر ، ولذلك كان يزفرها زفرات تقطع نياط الأكباد ، استمع إليه يقول :

---

(١) غمرات الهوى : شدائد الحب . والردى : الهلاك . وزاخر : طام ممتلئ .

(٢) الدبيب : السير اللطيف اللين . والمنى : الأمانى والآمال واحدتها منية . وألمح : أرى . والشبهة : الالتباس والشك ومعنى البيت : أنه يعيش بين الأمل والشك ، فإذا انتعشت نفسه بالآمال كدرها ما يخطر على باله من الشك فى تحقق هذه الآمال .

(٣) الروعة : الفزعة وهى اسم مرة من الروع بمعنى الفزع والخوف .

(٤) بين هاتين : أى حالتى الهدوء والفزع . والشبا : جمع شباة وهى حد كل شىء .

(٥) الوصلة : الاتصال . والمراد بالصبوة : الهوى والغرام ، يتمنى شافعاً ووسيطاً يمهد له سبيل الوصال أو ناصراً يعينه على الصبوة والغرام .

لَبَّيْكَ يا داعيَ الأشواقِ من داعى ... أسْمَعتَ قلبى، وإن أخطأتَ أسماعى (١)

مُرْنى بما شئتَ أبلُغْ كلَّ ما وصَلَتْ ... يَدِى إليــه فإنى سامعٌ واعى

فلا وَربِّك ما أُصْغِى إلى عَذَلٍ ... ولا أُبيحُ حِمى قلبى لحدَّاعِ (٢)

إنى امرؤٌ لا يَرُدُّ العَذْلُ بادِرَتى ... ولا تَفُلُّ شَباةُ الخطبِ إزْماعى (٣)

بَذَلْتُ فى الحبِّ نفسى وهْى غاليةٌ ... لباخلٍ بصــفاء الوُدِّ مَنَّاعِ

أشكو إليــه ولا يُصغى لمعذرتى ... من غَيرِ ذَنبٍ جَنَتْه النفسُ أو داعى

وَيلاهُ من حاجةٍ فى النفسِ هامَ بها ... قلبى وقصَّرَ عن إدراكها باعى (٤)

أسْعى لها وَهْى منى غيرُ دانيةٍ ... وكيْف يَبلُغُ شَأوَ الكوكبِ الساعى (٥)

يا حَبَّذا جَرْعَةٌ من ماء مَحْنِيَةٍ ... وضَجعةٌ فوْقَ بردِ الرَّملِ بالقاعِ (٦)

ونَسْمةٌ كشَميمِ الخلدِ قد حملَتْ ... رَيَّا الأزاهير من مِيثٍ وأجْراعِ (٧)

يا هلْ أرانى بذاكَ الحىِّ مجتمعاً ... بأهلِ وُدِّىَ من قوْمى وأشياعى (٨)

---

(١) لبيك : لزوماً لطاعتك . وأخطأت أسماعى : أى كم أسمع هذا النداء وأخطأ طريقه إلى سمعى . يتخيل أن الأشواق تدعوه-وأنها أخطأت الطريق إلى سمعه .

(٢) فلا وربك : أقسم بربك و (لا) مزيدة لتوكيد القسم . والعذل : اللوم .

(٣) البادرة : ما يبدر من الإنسان عند غضبه من قول أو فعل والمراد بالبادرة هنا شدة العزم وقوة الإرادة . وتفل : تكسر . وشباة السنان : حده . والخطب : النازلة الشديدة من نوائب الدهر . والإزماع : العزم .

(٤) ويل : كلمة عذاب . والمراد بالحاجة هنا : قربه من مصر .

(٥) الشأو : الغاية .

(٦) المحنية من الوادى : منعطفه أى الموضع الذى ينحنى فيه . والقاع : أرض واسعة سهلة مستوية .

(٧) النسمة : (بفتح السين) وسكنت هنا للضرورة وهى الريح المعتدلة ، والمراد بشميم الخلد : نسيم الجنة . وريا الأزاهير : ريحها الطيبة . والميث : جمع ميثاء وهى الأرض السهلة اللينة من غير رمل . والأجراع : جمع جرع (كجبل) وهو الأرض الرملية السهلة الطيبة المنبت .

(٨) يا : حرف نداء للالتفات فكأنه قال : يا قوم هل أرانى بذاك الحى مجتمعاً .

منازلٌ كنتُ منهـا فى بُلَهْنِيَةٍ ... مُمَتَّعاً بينَ غِلمـانى وأتباعى[١]

فاليومَ أصبحتُ لا سهمى بذى صَرَدٍ ... إذا رَميتُ ولا سـيْفى بقطّاعِ[٢]

أبيتُ فى قُنَّةٍ قَنـــواءَ قد بلغتْ ... هامَ السِّماكِ وفاتتْهُ بأبْواعِ[٣]

أظَلُّ فيها غريبَ الدّارِ مُبْتئساً ... نابى المضاجعِ منْ هَمٍ وأوجاعِ

لا فى « بَرَنْديبَ » خِلٌّ أستعينُ به ... عَلَى الهمومِ إذا هاجتْ ولا راعى

يَظُنُنى من يرانى ضاحكاً جذِلاً ... أنِّى خلىٌّ وهَمى بين أضـلاعى

وَلا وربِّكَ ما وَجْدى بمنـدرسٍ ... عَلَى البِعادِ ولا صـبرى بمطواعِ[٤]

لـكننى مالكٌ حزمى ومنتظرٌ ... أمراً من الله يَشفى بَرْحَ أوجاعى[٥]

أكُفُّ غَربَ دموعى وهْى جاريةٌ ... خَوْفَ الرقيبِ وقلبى جِدُّ مُلتاعِ[٦]

فإن يكن ساءنى دهرى ، وغادرنى ... رهنَ الأسى بين جذْبٍ بعد إمراعِ[٧]

فإنَّ فى مصر إخـــواناً يسرُّهمُ ... قربى ويُعجِبهُم نظمى وإبداعِى

---

(١) البلهنية : الرخاء والرفاهية وسعة العيش .

(٢) صرد : مصدر صرد السهم (من باب فرح) أى أصاب ونفذ .

(٣) القنة : أعلى الجبل . وقنواء : عالية مرتفعة صفة من القنا وهو ارتفاع أعلى الأنف . والهام : جمع هامة وهى رأس كل شىء وأعلاه . والسماك : نجم يضرب به المثل فى الارتفاع . وهما سماكان : أحدهما السماك الأعزل ، والآخر السماك الرامح . والأبواع : جمع باع .

(٤) مندرس : ذاهب وزائل . ومطواع : مطيع .

(٥) البرح : الشدة .

(٦) غرب دموعى : انهمالها وفيضانها . وملتاع : يحترق شوقاً .

(٧) الإمراع : الإخصاب .

عتاب

تمثل أحياناً نفس المحب بأشياء ينكرها من حبيبه فينفس عنها بالشكوى والعتاب :

أليس من العدلِ أن تسمعا ؟ فأشكو إليك نَموماً سعى[١]
أطاع له الماء حتى استقى وأمكنه الرَّعْيُ حتى رعَى[٢]
أتاك فأغْشَيْتَهُ منزلاً رحيباً وأرْعَيْتَهُ مِسْمَعا[٣]
فأبدعَ ما شاء فى فِرْيَةٍ تأنَّقَ فى صنعها وادَّعى[٤]
صَناعُ اللِّسانِ خَلوبُ البيا نِ يخلُقُ من ضِحكه أدمُعا[٥]
حريصٌ على الشرِّ لا ينثنى عن القصد ما لم يجد مَنْزِعا[٦]
يسيرُ مع الرِّفق حتى إذا تمكن من فرصةٍ أوضَعا[٧]
وما كان لولا خِلاجُ الظنونِ ليرغبَ فى القولِ أو يَطمعا[٨]

---

(١) النموم : النمام صيغة مبالغة من النميمة : وسعى : من السعاية وهى النميمة . والاستفهام فى البيت للتقرير .

(٢) أطاع له : انقاد له وأتاه طائعاً سهلا . والرعى : الكلأ والمرعى . وأمكنه الأمر : سهل عليه . البيت كناية عن أن ذلك النمام قد وجد فى المعاتب (بفتح التاء) استعداداً لسماع النميمة وقبول الوشاية .

(٣) أغشيته منزلا : أنزلته به . والمسمع (بكسر فسكون ففتح) : الأذن .

(٤) الفرية : اسم من افترى عليه كذباً أى اختلقه ، وتأنق فى الأمر : أجاده .

(٥) صناع اللسان : لبق ماهر فى الكلام . خلوب : خداع . يخلق من ضحكه أدمعاً : يعمد إلى ما يثير الضحك لقدرته فيصوره باعثاً للبكاء أو هو لإمعانه فى الخداع يظهر البكاء الكاذب فى حين أنه يضحك من قلبه .

(٦) منزعاً : (كمجلس) اسم مكان من نزع فلان عن الأمر أى كف عنه أو منزع (كمذهب) مصدر ميمى بمعنى النزوع وكلاهما بمعنى منصرف ومتحول .

(٧) أوضع فى الفتنة : أسرع إليها .

(٨) خلاج الظنون : اضطرابها وتحركها فى النفس ، والمعنى : أن معالجة الظنون السيئة للمعاتب (بفتح التاء) وميله إلى اتهام الموشى به قد يسر لهذا النمام سبيل الوشاية .

وَلا وَحِفاظِك وهو اليميـــنُ ما حُلتُ عن عهدِكم إصبَعا[١]
ولـكنهـــا نَزغاتُ الوُشاةِ أصابَتْ هَوًى ، فَلَوَتْ أَخْدَعا[٢]
وليس ملامى على من وشَى ولـكن مَلامى عَلَى من وعَى
أيَجْمُلُ بالعهدِ أن يُستباحَ لواشٍ ، وللوُدِّ أن يُقطَعا
فشـتَّانَ ما بيننا فى الودا دِ : خلٌّ أضاع وخلٌّ رَعَى[٣]
ومَن أشركَ الناسَ فى أمرِه دعَتْه الضرورةُ أن يُخْدعا
فخذها إليـــك عِتابيَّةً تَرُدُّ عَصِىَّ المُنى طَيِّعا[٤]
ولولا مكانُك من مُهْجَتى لَمـا قلتُ لابنِ عِشارٍ لَعا[٥]

طيف سميرة*

رأى ابنته الوسطى سميرة فى المنام وهو فى منفاه ، فهاجت شوقه ، وأرقت نومه ، وعاودته الذكرى ، واستبد به الحنين فقال :

تَأَوَّبَ طَيْفٌ مِنْ سَمِيرةَ زائرُ وَمَا الطَّيفُ إلَّا ما تُرِيهُ الخواطِرُ[٦]

---

(١) الواو للقسم ، والحفاظ : الدفاع عن الحرم والمحافظة عليها .

(٢) نزغات : جمع نزغة وهى الإفساد بين الناس وإلقاء العداوة والبغضاء بينهم . والأخدع : عرق فى جانب العنق قد خفى وبطن وهما أخدعان فى جانبى الرقبة ومن كلامهم لوى فلان أخدعه ، يكنون بهذا عن إعراضه وتكبره .

(٣) شتان : كلمة تفيد البعد . أضاع : المراد أضاع الوداد . ورعى : المراد صان الوداد وحفظه .

(٤) يريد بالعتابية : هذه القصيدة منسوبة إلى العتاب .

(٥) المهجة : النفس أو دم القلب ، والعشار : الزلل . ولعا (كفتى) كلمة يدعى بها للعاثر يقولون : « لعاً لك » إذا أرادوا الدعاء له بالانتعاش . والمراد بابن العشار هنا صديقه الذى يعاتبه كأنه عثر وكبا فهو ينعشه ويرفعه بعتابه .

(*) توفاها الله فى الخامس عشر من شهر فبراير سنة ١٩٥٣ .

(٦) تأوبه : أتاه ليلا . والطيف : الخيال الطائف فى المنام . يقول : زارنى خيال سميرة فى المنام ، وما الحلم إلا شىء يضطرب فى بال الإنسان ويشتغل به قلبه .

طَوَى سُدْفَةَ الظَّلْمَاءِ والليلُ ضارب ... بِأَرْوَاقِهِ والنَّجْمُ بالأُفْقِ حَائِرُ(١)

فَيَا لَكَ مِنْ طَيْفٍ أَلَمَّ ودُونَهُ ... محيطٌ مِنَ البحرِ الجنوبيِّ زَاخِرُ(٢)

تَخَطَّى إِلَيَّ الأَرضَ وَجْداً وما له ... سِوَى نَزَواتِ الشَّوْقِ حَادٍ وزاجِرُ(٣)

أَلَمَّ ولَمْ يَلْبثْ وسار وليتَه ... أَقَامَ وَلَوْ طَالَتْ عَلَيَّ الدَّياجِرُ(٤)

تَحَمَّلَ أَهْوَالَ الظَّلَامِ مُخَاطِراً ... وعَهْدِي بِمَنْ جَادَتْ بِهِ لَا تُخَاطِرُ(٥)

خُمَاسِيَّةٌ لَمْ تَدْرِ ما اللَّيْلُ والسُّرَى ... وَلَمْ تَنْحَسِرْ عَنْ صَفْحَتَيْهَا السَّتَائِرُ(٦)

عَقِيلَةُ أَتْرَابٍ تَوَالِينَ حَوْلَها ... كَمَا دَارَ بِالْبَدْرِ النُّجُومُ الزَّواهِرُ(٧)

غَوَافِلُ لا يَعْرِفْنَ بُؤْسَ مَعِيشَةٍ ... وَلَا هُنَّ بالْخَطْبِ المِلِمِّ شَواعِرُ

تَعَوَّدْنَ خَفْضَ الْعَيْشِ فِي ظِلِّ والدٍ ... رَحِيمٍ ، وبَيْتٍ شَيَّدَتْهُ الْعَنَاصِرُ(٨)

تُمَثِّلُها الذِّكْرَى لعيني كَأَنَّنِي ... إِلَيْهَا عَلَى بُعْدٍ مِنَ الأَرضِ ناظِرُ

فطوراً أُخَالُ الظَّنَّ حَقًّا وتارةً ... أَهِيمُ ، فَتَغْشَى مُقْلَتَيَّ السَّمادِرُ(٩)

---

(١) السدفة : السترة ، وهى ما يستر به الشيء ، وسدفة الظلماء الشبيهة بالسدفة ، وطواها : سلكها وقطعها . والأرواق : جمع روق وهو الستر ، ومقدم البيت ، والفسطاط . وضرب أرواقه : كناية عن الاستقرار والتمكن . وكنى بحيرة النجم فى الأفق عن شدة الظلام كأنه لا يهتدى .

(٢) يا لك : عجباً لك . ألم : نزل .

(٣) نزوات : وثبات . والحادى : السائق . والزاجر : من زجر البعير أى ساقه .

(٤) الدياجر : جمع ديجور وهو الظلمة .

(٥) يشير بالشطر الثانى إلى أن ابنته صغيرة السن لا تقوى على المخاطرة والأسفار .

(٦) خماسية : بنت خمس سنوات أو طوطا خمسة أشبار . صفحتاها : جانبا وجهها . والشطر الثانى : كناية عن تنعمها وصونها وأنها لا تعرف الطريق إلى الشارع .

(٧) العقيلة : كريمة الحى . والأتراب : جمع ترب وهو من كان فى مثل سن الإنسان .

(٨) خفض العيش : سعة المعيشة والحياة الناعمة . والعناصر : المناقب والمفاخر والأصول الكريمة واحدها عنصر وهو الأصل والحسب .

(٩) السمادر : جمع سمدور وهو غشاوة العين وضعف البصر .

فيا بُعْدَ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ أَحِبَّتِي ... ويا قُرْبَ ما الْتَفَّتْ عَلَيْهِ الضَّمَائِرُ(١)
وَلَوْلا أَمَانِي النَّفْسِ وَهْيَ حَيَاتُهَا ... لَمَا طَارَ لِي فَوْقَ الْبَسِيطَةِ طَائِرُ
فَإِنْ تَكُنِ الأَيَّامُ فَرَّقْنَ بَيْنَنَا ... فَكُلُّ امْرِئٍ يَوْمًا إِلَى اللهِ صَائِرُ

حزن ولوعة

توفيت زوجته وهو فى المنفى بسرذيب فشق عليه فيها ، فرثاها بهذه القصيدة . وقد كان للوعة الفراق ، وألم الحزن ، وغربة النفى ، وفداحة المصاب أثر بالغ فى عاطفته ، فسكبها شعراً ملتاعاً ، ويعد البارودى أول من رثى زوجته شعراً فى العصر الحديث . وقليل هم الذين رثوا زوجاتهم فى الشعر القديم . قال :

أَيَدَ الْمَنُونِ قَدَحْتِ أَيَّ زِنَادِ ... وَأَطَرْتِ أَيَّةَ شُعْلَةٍ بِفُؤَادِي(٢)
أَوْهَنْتِ عَزْمِي وَهْوَ حَمْلَةُ فَيْلَقٍ ... وَحَطَمْتِ عُودِي وَهْوَ رُمْحُ طِرَادِ(٣)
لَمْ أَدْرِ هَلْ خَطْبٌ أَلَمَّ بِسَاحَتِي ... فَأَنَاخَ أَمْ سَهْمٌ أَصَابَ سَوَادِي ؟(٤)
أَقْذَى العيونَ فَأَسْبَلَتْ بِمدامِعٍ ... تَجْرِي على الْخَدَّيْنِ كالْفِرْصَادِ(٥)
مَا كُنْتُ أَحْسَبُنِي أُرَاعُ لِحَادِثٍ ... حَتَّى مُنِيتُ بِهِ فَأَوْهَنَ آدِي(٦)
أَبْلَتْنِي لْحَسَرَاتُ حَتَّى لَمْ يَكَدْ ... جِسْمِي يَلُوحُ لِأَعْيُنِ الْعُوَّادِ(٧)

---

(١) يريد بقوله : « ما التفت عليه الضمائر » ما تكنه النفوس من الود والشوق .

(٢) الهمزة فى أول هذا البيت : حرف نداء . والمنون المنية . وأى هنا : تفيد التعظيم . والزناد : جمع زند وهو الحديدة أو العود الذى تقدح به النار .

(٣) الفيلق : الجيش . الطراد : الحملة على الأقران فى ميدان القتال .

(٤) السواد هنا : حبة القلب كالسويداء . وكان الأولى أن يستفهم هنا بالهمزة بدل هل .

(٥) أقذى العيون : جعل فيها القذى وهو ما يسقط فى العين فيهيجها . والفرصاد : صبغ أحمر .

(٦) الآد : القوة .

(٧) العواد : جمع عائد وهو من يزور المريض .

أَسْتَنْجِدُ الزَّفَراتِ وَهْيَ لَوَافِحٌ ... وَأُسَفِّهُ الْعَبَرَاتِ وَهْيَ بَوَادِي (١)

لاَ لَوْعَتِي تَدَعُ الفؤادَ ولا يدى ... تقوى على ردِّ الحبيبِ الْغَادِي (٢)

يا دَهْرُ فيمَ فَجَعْتَنِي بِحَلِيلَةٍ ... كانَتْ خُلَاصَةَ عُدَّتِي وعَتَادِي (٣)

إِنْ كُنْتَ لَمْ تَرْحَمْ ضَنَايَ لِبُعدها ... أَفَلَا رَحِمْتَ مِنَ الأسى أَوْلَادِي (٤)

أَفْرَدْتَهُنَّ فَلَمْ يَنَمْنَ تَوَجُّعاً ... قَرْحَى العُيونِ رَوَاجِفَ الأَكْبَادِ (٥)

أَلْقَيْنَ دُرَّ عُقُودِهِنَّ وصُغْنَ مِنْ ... دُرِّ الدُّموعِ قَلَائِدَ الأَجْيَادِ (٦)

يَبْكِينَ مِنْ وَلَهٍ فِرَاقَ حَفِيَّةٍ ... كانتْ لَهُنَّ كثيرةَ الإِسْعَادِ (٧)

خُدُودُهُنَّ مِنَ الدُّمُوعِ نَدِيَّةٌ ... وقلوبُهُنَّ مِنَ الهمومِ صَوَادِي (٨)

أَسْلِيلَةَ الْقَمَرَيْنِ أَيُّ فَجِيعَةٍ ... جَلَّتْ لِفَقْدِكِ بَيْنَ هَذَا النَّادِي (٩)

أَعْزِزْ عَلَيَّ بِأَنْ أَرَاكِ رَهِينَةً ... فِي جَوْفِ أَغْبَرَ قَاتِمِ الأَسْدَادِ (١٠)

لو كان هذا الدَّهْرُ يَقْبَلُ فِدْيَةً ... بالنَّفْسِ عنكِ لكنتُ أَوَّلَ فَادِي

---

(١) أستنجد الزفرات : أستعين بها على تخفيف الحزن . ولوافح : محرقة .

(٢) اللوعة : حرقة الحزن وألمه . الغادى : الراحل .

(٣) الحليلة : الزوجة .

(٤) الضنى : مصدر ضنى يضنى أى مرض مرضاً شديداً كلما ظن برؤه نكس .

(٥) أفردتهن : جعلتهن وحيدات والخطاب للدهر . قرحى العيون : مجروحات العيون . ورواجف جمع راجفة أى مضطربة والمراد بالأكباد القلوب ، وكنى برجف أكبادهن عن اضطراب حالهن وما أصابهن من الفزع .

(٦) الأجياد : جمع جيد وهو العنق .

(٧) الوله : الحزن أو ذهاب العقل حزناً . والحفية : صفة على وزن فعيلة بمعنى فاعلة من حفى به حفاوة إذا بالغ فى إكرامه .

(٨) صوادى : جمع صاد أى عطشان .

(٩) النادى : مجلس القوم ومتحدثهم والمراد ناديه ومنزله .

(١٠) الأسداد : جمع سد وهو الحاجز بين الشيئين والمراد الجدران .

أو كانَ يَرْهَبُ صَوْلَةً مِنْ فاتكٍ ... لفعلتُ فِعْلَ الحارثِ بنِ عُبَادِ[١]

لكنَّها الأقدارُ ليس بناجعٍ ... فيها سِوَى التَّسْلِيمِ والإخْلَادِ[٢]

فَبِأَيِّ مَقْدَرَةٍ أُرُدُّ يَدَ الأسى ... عَنِّى وقَدْ مَلَكَتْ عِنَانَ رَشَادِى

أفأستعينُ الصَّبْرَ وَهْوَ قساوةٌ ... أمْ أصْحَبُ السُّلْوانَ وهْوَ تَعَادِى[٣]

جَزَعُ الفتى سِمَةُ الوفاء وصبرُه ... غَدْرٌ يَدُلُّ به على الأحقاد

أمسيتُ بَعْدَكِ عِبْرَةً لِذَوِى الأسى ... فى يوم كُلِّ مُصيبَةٍ وَحِدَاد

وَرَدَ البريدُ بغـــير ما أمَّلْتُه ... تَعِسَ البريدُ وشاهَ وجْهُ الْحَادِى[٤]

وَيْلُمِّهِ رُزْءًا أطَارَ نَعِيُّهُ ... بالقلب شُـعْلَةَ مَارِجٍ وَقَّادِ[٥]

عَظُمَتْ مُصيبتُه علىَّ بِقَدْرِ ما ... عَظُمَتْ لدَىَّ شَمَاتَةُ الحُسَّاد

سِرْ يا نسيمُ فبلِّغِ القبرَ الذى ... بِحِمَى الإمام تَحِيَّتِى وَوِدادى[٦]

تاللهِ ما جَفَّتْ دُموعى بعد ما ... ذَهَبَ الرَّدَى بكِ يا ابنةَ الأمجاد

لا تَحْسبينى مِلْتُ عنكِ مع الهوى ... هيهاتَ ما تَرْكُ الوفاء بِعادِى[٧]

---

(١) الحارث بن عباد البكرى : كان من سادات العرب وشعرائهم وأبطالهم فى الجاهلية ومن أيامه المشهورة يوم تحلاق اللمم وفيه انتصر قومه بنو بكر على بنى تغلب فى حرب البسوس المشهورة .

(٢) الإخلاد : الاطمئنان والمراد هنا الإخلاد إلى قضاء الله تعالى وقدره .

(٣) تعادى : تباعد والمعنى : أن الصبر على فراق الأحبة يعد من القساوة وصلابة القلب وجمود العاطفة ، وأن السلو عنهم تباعد عن الوفاق .

(٤) الحادى : الذى يحث الإبل على السير بالغناء لها . ويتخيل أن الرسالة التى وردت إليه نقلتها الإبل على عادة العرب فى ذلك .

(٥) ويلمه : أصلها ويل لأمه ، والويل : العذاب وحلول الشر . والمارج : النار لا دخان لها .

(٦) يريد بالإمام : الإمام الشافعى ويقصد المقبرة الموجودة بجواره .

(٧) بعادى : العاد : جمع عادة أى ترك الوفاء ليس من عاداته .

قد كِدْتُ أقضى حَسْرةً لَوْ لم أكن متوقعاً لُقْياكَ يومَ مَعادى[١]
فعليكِ منْ قلبى التحيةَ كلما ناحتْ مطوَّقةٌ على الأعوادِ[٢]

محنة واغتراب

شبت الثورة العرابية فى أوائل سنة ١٨٨١ وانتهت باحتلال الإنجليز لمدينة الإسكندرية فى يوليه سنة ١٨٨٢ ، فقبض على زعماء الثورة بعد موقعة التل الكبير ، ونفى معظمهم إلى جزيرة « سرنديب » إحدى جزر الهند وهى من مستعمرات إنجلترا ، وكان البارودى من المنفيين إلى تلك الجزيرة ، وظل فى المنفى سبعة عشر عاماً ، وهن فيها جسمه ، وذهب بصره ، وأدركته الشيخوخة وأصبح كما قال « أشلاء همة فى ثياب » ، وكان كثير التحنان إلى مصر ، والتطلع إلى حريته ، وقد أثر النفى فى حسه المرهف فزاده بؤساً على بؤس ، ومن القطع الرائعة قوله يصف حاله وهو فى المنفى من قصيدة يرثى فيها صديقيه الشيخ حسين المرصفى وعبد الله فكرى وكان نعى الأصدقاء والأحباب له وهو فى منفاه يزيد فى حزنه وشجاه ويفت من عضده :

كَيْفَ لاَ أَنْدُبُ الشَّبابَ وقَدْ أصْ بَحْتُ كَهْلاً فى مِحْنَةٍ واغْتِرَابِ ؟[٣]
أَخْلَقَ الشَّيْبُ جِدَّتِى وكَسَانِى خِلْعَةً مِنْهُ رَثَّةَ الْجِلْبَابِ[٤]
وَلَوَى شَعْرَ حاجِبِىَّ عَلَى عَيْـ ـنَىَّ حَتَّى أَطَلَّ كالهُدَّابِ[٥]
لاَ أَرَى الشَّىْءَ حِينَ يَسْنَحُ إلَّا كخيالٍ كَأَنَّنِى فِى ضَبَابِ
وَإِذَا مَا دُعِيتُ حِرْتُ كَأَنِّى أَسْمَعُ الصَّوْتَ مِنْ وَرَاءِ حِجَابِ
كُلَّما رُمْتُ نَهْضَةً أَقْعَدَتْنِى وَنِيَّةٌ لاَ تُقِلُّهـا أَعْصَابِى[٦]

---

(١) أقضى حسرة : أموت من الحسرة . ويريد باللقيا اللقاء .
(٢) المطوقة : الحمامة .
(٣) ندب الميت : بكى عليه وعدد محاسنه : والكهل من وخطه الشيب . والمحنة : البلوى .
(٤) أخلق : أبلى وأفنى . وجد الشىء يجد جدة (بكسر الجيم فيهما) : صار جديداً وهو نقيض الخلق (بفتح الخاء واللام) ، والخلعة : ما تمنحه غيرك من الثياب . ورثة : بالية .
(٥) الهداب : خمل الثوب .
(٦) الونية : اسم مرة من ونى فى الأمر ونيا ضعف وفتر . وتقلها : تحملها .

لَمْ تَدَعْ صَوْلَةُ الحوادثِ مِنِّى غَيْرَ أشلاء هِمَّةٍ فى ثِيَابِ[١]
فَجَعَتْنِى بوالِدىَّ وأهْلى ثُمَّ أنْحَتْ تَكَرُّهًا فى أتْرابِى[٢]
كُلَّ يَوْمٍ يَزُول عَنِّى حبيبٌ يا لِقَلْبِى مِنْ فُرْقَةِ الأَحْبَابِ

شكوى وفخر

لم يكن البارودى مقدراً الثورة العرابية الإخفاق أول الأمر ، لأن كل أسباب النجاح كانت موجودة ، ولكنه طعن من الخلف بغدر الغادرين الخونة الذين اندسوا فى صفوف الثوار وعرفوا خططهم ثم وشوا بهم ، وتركوهم والمعركة محتدمة . مع أنهم أقسموا الأيمان المغلظة على السير إلى النهاية مع الثوار ، ومع أنهم يعلمون مقدار الفساد المستشرى فى مصر ، وعنجهية الأتراك والشراكسة واستبدادهم وما يلاقيه الفلاحون من عنت الحاكم المستبد من إرهاق فى الضرائب ، وسخرة ، وجلد . ولذلك كان البارودى دائم الشكوى من هؤلاء المنافقين النفعيين ، وكان فى الوقت نفسه يفتخر بشجاعته ، وحرية رأيه ، وثورته على الفساد وإن لاقى فى سبيل مبدئه العذاب الأليم من سجن ونفى وغربة ومرض وشيخوخة ومن ذلك قوله :

لَعَمْرِى لَقَدْ وَلَّى الشبابُ وحَلَّ بى من الشَّيْبِ خَطْبٌ لا يُطاقُ مَرَدُّه[٣]
فأىُّ نعيمٍ فى الزمانِ أرُومُه ؟ وأىُّ خليلٍ للوفاء أعُدُّه
وكيف ألومُ الناسَ فى الغدْرِ بعد ما رأيت شبابى قَدْ تَغيَّر عَهْدُه[٤]
صحبتُ بَنى الدنيا طويلاً فَلَمْ أجدْ خليلاً ، فهلْ من صاحبٍ أسْتَجِدُّه ؟[٥]
فأكثرُ مَنْ لاقيْتُ لَمْ يَصْفُ قَلْبُه وأصْدَقُ من والَيْتُ لم يُغْنِ وُدُّه[٦]

---

(١) الصولة : السطوة . والأشلاء : جمع شلو (بكسر فسكون) وهو العضو أو بقية الشيء .
(٢) أنحت : أقبلت . والأتراب : جمع ترب (بكسر فسكون) وهو من ولد معك ومن ساواك فى سنك .
(٣) لعمرى : وحياتى . والخطب : الأمر الشديد ينزل بالإنسان .
(٤) إنه لا يلوم الناس فى نقض العهد بعد ما رأى شبابه يصاحبه زماناً ثم يتخلى عنه ويغادره .
(٥) أستجده : أصاحبه من جديد .
(٦) والَيت : صادقت وأحببت .

أُطالبُ أيّامِي بما ليس عِندَها ... ومَن طلبَ المعدومَ أعياهُ وجْدُه(١)

فما كلُّ حَيٍّ ينصرُ القولَ فِعلُه ... ولا كلُّ خلٍّ يَصْدُقُ النَّفْسَ وَعْدُهُ

وأصعبُ ما يَلْقَى الفتى فى زمانه ... صَحابَةُ مَن يشْفى مِن الدَّاء فَقْدُهُ(٢)

وللنُّجْح أسبابٌ إذا لم يَفُزْ بها ... لبيبٌ مِن الفتيانِ لَمْ يُورِ زَنْدُهُ(٣)

وما أنا بالمغْلُوب دُونَ مَرامِه ... ولكنه قد يَخْذُلُ المرءَ جَهْدُه

وما أبْتُ بالحِرْمَانِ إلاَّ لأنَّنى ... « أوَدُّ مِنَ الأيام ما لا تَوَدُّهُ »(٤)

أبَى الدَّهْرُ إلَّا أن يسودَ وضيعُه ... ويَملِكُ أعناقَ المطَالِبِ وغْدُه

تَدَاعَتْ لِدَرْكِ الثَّأرِ فينا ثُعالَةٌ ... ونامت على طولِ الوتِيرةِ أُسْدُه(٥)

فحتَّامَ نَسْرى فى دياجِيرِ مِحْنَةٍ ... يَضيقُ بُهلعن صُحْبَةِ السَّيفِ غِمدُهُ(٦)

إذا المرءُ لَمْ يَدْفَعْ يَدَ الجورِ إن سَطَتْ ... عليهِ فَلا يأسَفْ إذا ضاعَ مَجْدُهُ

ومَنْ ذَلَّ خَوْفَ الموتِ كانت حياتُه ... أضرَّ عليه مِن حِمامٍ يَؤُدُّهُ(٧)

---

(١) وجده : إدراكه .

(٢) هذا البيت يتضمن قول المتنبى :

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى ... عـدوا له ما من صـداقته بد

(٣) الزند : العود الذى تقدح به النار وهو الأعلى والزندة السفلى ، ومعنى لم يور زنده : لم يشمر سعيه .

(٤) الشطر الثانى من قول المتنبى فى مطلع قصيدته التى يعارضها الشاعر بهذه القصيدة :

أود من الأيـام ما لا تـوده ... وأشكو إليها بيننا وهى جنده

(٥) تداعت : تجمعت وتألبت بالعداوة . وثعالة : علم جنس للثعلب واستعمله هنا استعمال الجمع . والوتيرة : الثأر .

(٦) السرى : السير ليلا . والدياجير : جمع ديجور وهو الظلام . ومعنى الشطر الثانى : أن هذه المحنة تستفز السيوف من أغمادها .

(٧) الحمام : الموت . ويؤده : ينزل به .

وَأَقْتَلُ داءٍ رؤيةُ العَيْنِ ظالماً ... يُسيء ويُتلَى فى المحافلِ حَمْدُه(١)

عَلامَ يعيش المرء فى الدَّهْرِ خاملاً ... أيَفْرَحُ فى الدُّنيا بيومٍ يَعُدُّهُ ؟(٢)

يَرَى الضَّيْمَ يَغْشَاهُ فَيَلْتَذُّ وَقْعَهُ ... كَذِى جَرَبٍ يَلْتَذُّ بالحَكِّ جِلْدُه(٣)

عَفَاءٌ على الدُّنْيَا إذا المرء لم يَعِشْ ... بها بَطَلاً يحمى الحقيقةَ شَدُّهُ(٤)

مِن العَارِ أنْ يَرْضَى الفَتَى بمذلَّةٍ ... وفى السَّيْفِ ما يَكْفِى لأمرٍ يَعُدُّهُ

وإنِّى امرؤ لا أَسْتَكِينُ لِصَوْلَةٍ ... وإنْ شَدَّ ساقِى دُونَ مَسْعَاىَ قِدُّه(٥)

أبَتْ لِىَ حَمْلَ الضَّيْمِ نَفْسٌ أَبِيَّةٌ ... وقَلْبٌ إذا سِيمَ الأذَى شَبَّ وقْدُه(٦)

أَصُدُّ عن المَرْمَى القريب تَرَفُّعاً ... وأَطْلُبُ أمْراً يُعْجِزُ الطَّيْرَ بُعْدُهُ

---

(١) يعرض البارودى فى هذا البيت بحاكم مصر الطاغية المستبد . يسىء ويظلم ويتلى فى المحافل حمده ، وهذا أثقل داء للنفوس الحرة الكريمة .

(٢) لا ينبغى أن يرضى المرء لنفسه بحياة الضعف والخمول والفرح بعد الأيام ، فى البيت حض على الشجاعة والنباهة وطلب الحياة العزيزة الكريمة .

(٣) الضيم : الظلم . يغشاه : يأتيه . والتذه والتذ به : وجده لذيذاً .

(٤) الحقيقة : ما يحق عليك أن تحميه من شرف وعرض ومال وغيرها .

(٥) أستكين : أخضع . والصولة : السطوة والبطش . والقد : (بالكسر) سير يقد من جلد غير مدبوغ ويقيد به الأسير .

(٦) سيم الأذى : أريد به الأذى يقال سامه خسفاً وذلا أى أراده عليه وأهانه . وشب : اتقد . والوقد : النار .

سجين

اشترك البارودى فى الثورة العرابية ، وكان من قوادها ، وقد حاول حينما تعقدت الأمور أن يعتزل المعركة ، ولكنه لم يستطع وقد سار مع الثوار شوطاً بعيداً ، وأخفقت الثورة ، وقبض على زعمائها ، وأودعوا السجن ومن بينهم البارودى ، وانتهى الأمر بنفيهم إلى جزيرة سيلان . وقد وصف البارودى — وهو الشاعر الحساس — السجن الذى نزل به لأول مرة فى حياته ، وكانت تجربة قاسية مر بها — وهو الذى كان رئيساً للوزارة — ومثل البارودى لا تفوته هذه التجربة دون أن يسجلها فى شعره ، وهذه القطعة التى نقدمها نموذج للأدب الواقعى تكاد تكون صورة دقيقة للسجن من غير أى خيال أو تزويق :

شَفَّنِى وَجْدى ، وأبْلانى السَّهَرْ ... وتَغَشَّتْنِى سَمَادِيرُ الكَدَرْ(١)

فَسَوادُ اللَّيلِ مَا إنْ يَنْقَضِى ... وَبَياضُ الصُّبْحِ ما إن يُنْتَظَرْ

لا أنيسٌ يَسْمَعُ الشَّكْوَى ، ولا ... خَبَرٌ يأتى ، ولا طَيفٌ يَمُرْ

بَينَ جُدْرانٍ وبَابٍ مُوصَدٍ ... كُلَّمَا حَرَّكَهُ السَّجَّانُ صَرْ(٢)

يَتَمَشَّى دُونَه ، حَتى إذا ... لَحِقَتْهُ نَبْأَةٌ مِنِّى اسْتَقَرْ

كُلَّما دُرْتُ لأقضِى حاجَةً ... قَالَتِ الظُّلْمَةُ : مَهْلاً لَا تَدُرْ

أتقرَّى الشَّىْءَ أبْغِيهِ فَلَا ... أجِدُ الشَّىءَ ، ولا نَفْسِى تَقَرْ(٣)

ظُلْمَةٌ ما إن بها من كَوْكَبٍ ... غَيرُ أنْفَاسٍ تَرَامَى بالشَّرَرْ

فاصْبِرِى يَا نَفْسُ حَتَّى تَظْفَرِى ... إنَّ حُسْنَ الصَّبرِ مِفْتَاحُ الظَّفَرْ

هِىَ أنْفَاسٌ تَقَضَّى ، والْفَتَى ... حَيْثُما كانَ أسِيرٌ لِلْقَدَرْ

---

(١) شفنى : لذع قلبى ، أو هزلنى وأنحلنى . والوجد : الحزن والألم والهم . وأبلانى : هزلنى وأضعفنى . وتغشتنى : جاءتنى ، والسمادير : جمع سمدور وهو غشاوة العين أو السمادير ضعف البصر ، والمراد بسمادير الكدر : ظلماته وهمومه .

(٢) صر : صوت . واسم ذلك الصوت الصرير .

(٣) أتقرى الشىء : أتتبعه ، والمراد أتلمسه بيدى فى هذه الظلمة الحالكة ، وتقر تستقر وتسكن .

ب — الشاعر السياسى

رأينا فى ترجمة البارودى أنه شغل كثيراً من مناصب الدولة حتى ولى الوزارة ورأسها ، وكانت نزعاته شعبية ، يميل بقلبه ومبادئه إلى الإصلاح ، وقد حاول أن يوفق بين ولائه للخديو وبين هذه النزعات والمبادئ التى مكنها فى نفسه تعاليم جمال الدين الأفغانى ، ولكن الأمور سارت على غير ما أراد ، وقامت الثورة العرابية ، وخاضها البارودى مع الخائضين ولكن التيار كان شديداً ، وتدخلت إنجلترا وفرنسا فى الأمر ، فأحس البارودى بالخطر ، فنصح لعرابى وإخوانه وصارحهم برأيه وحاول الاعتزال فى مزارعه ، ولكنه كان قد جرى فى الثورة شوطاً بعيداً وفى هذا يقول :

نَصحتُ قَومِى وقلتُ الحربُ مَفْجعَةٌ ورُبما تَاحَ أمْرٌ غير مَظنُونِ

ولعله كان يتوجس خيفة من تدخل الأجانب ، وأن ذلك سيقضى على استقلال مصر ، وسينكل بالثوار ، ولكن هؤلاء لم يستمعوا له :

فخالفونى وشـبّوها مكابرةً وكان أولَى بقومى لو أطاعونى
حتى إذا لم يَعُدْ فى الأمر مَترَعَةٌ وأصْبَحَ الشرُّ أمْراً غير مَكنُونِ
أجَبْتُ إذ هتفوا باسْمى ومن شيمِى صِدْقُ الْوَلاء وتحقيقُ الأظانين

ولقد كان فى البارودى طموح ، وكان يود شيئاً لم يستطع الإفصاح عنه ، وكثيراً ما ورد هذا الأمل المكتوم فى خبايا فؤاده فى شعره ولعل هذا الطموح هو الذى دفعه فى أحضان الثورة مع رغبته الملحة فى الإصلاح . ولقد خلد للثورة ومواقفه منها فى شعره ، ولم يكف عن الحديث عنها حتى بعد أن نفى ، تارة يسوغ موقفه ، ويبنى عن نفسه تهمة التآمر على خلع الخديو ، وأنه لم يكن يريد إلا الإصلاح وتارة يهدد ويتوعد ، وتارة يلوم هؤلاء الذين خذلوه إبان المعركة ، فتجمع من كل ذلك مجموعة صالحة من الشعر السياسى ، كلها حماسة وصدق وتصوير للواقع .

فمن هذه القصائد السياسية قوله يعرض برياض باشا الذى لم يرتح لنزعاته الشعبية حين ولى البارودى وزارة الأوقاف وصار يشجع المطالبين بالدستور فنحاه توفيق عن الوزارة . وفى هذه القصيدة يذم الدسّ والمكايد ، والسياسة ومحترفيها ، وما جنته على مصر ، ويحرض على الثورة ويدعو لنفسه :

إنى امرؤٌ كَفَّنى حلمى وأدَّبنى كَرُّ الجديدين من ماضٍ ومُقتبَل[1]

---

(١) الجديدان : الليل والنهار .

فما سَرَيتُ قِناعَ الحلم عن سفهٍ ... ولا مَسَحْتُ جَبينَ العزِّ من خجل (١)

حَلَبتُ أشْطُرَ هذا الدهرِ تَجربةً ... وَذُقتُ ما فيه من صَابٍ ومن عَسَل (٢)

فما وجَدتُ على الأيامِ باقيةً ... أشهى إلى النَّفس من حُرِّيَّة العمل

لكنَّنا غرضٌ للشرِّ في زمنٍ ... أهلُ العقول به في طاعة الخَمَلِ (٣)

قامت به من رِجالِ السوء طائفةٌ ... أدهَى على النفس من بُؤسٍ على ثَكَل (٤)

مِن كلِّ وغْدٍ يَكادُ الدَّستُ يدفعه ... بُغضًا ويَلفِظُه الدِّيوانُ من مَلَلِ (٥)

ذَلَّت بهم مصرُ بعد العز واضطربت ... قواعِدُ المُلكِ حتى ظَلَّ في خَلَل

وأصْبَحَت دولةُ الفسطاط خاضِعةً ... بعد الإباء وكانت زَهْرةَ الدُّول (٦)

بئس العشيرُ وبِئست مصر من بلدٍ ... أضْحَت مُناخاً لأهل الزُّور والخَطَلِ (٧)

أرضٌ تأثَّلَ فيها الظلمُ وانقَذَفَتْ ... صواعقُ الغدرِ بين السَّهل والجبل (٨)

وأصبح الناسُ في عمْيَاء مُظلمةٍ ... لَمْ يَخْطُ فيها امروءٌ إلاّ على زَلَل (٩)

---

(١) سرا عنه الثوب : كشفه ، وسرا ثوبه عنه سروا : كشفه كذلك . ويريد أنه ما غضب عن جهل وطيش بل عن روية وحكمة ، ولم يأت ما يخجل منه ويندى له جبينه العزيز فيمسحه .

(٢) الأشطر : جمع شطر وهو خلف الناقة (ضرعها) والأصل شطران ، ولكنه أحل الجمع محل المثنى وهو جائز في اللغة . وقد حلب أشطره : أي قاسى الشدائد والرخاء وتصرف في الفقر والغنى . الصاب : المر .

(٣) الخمل : جمع خامل . غرض : هدف .

(٤) الثكل : فقد الولد .

(٥) الوغد : الأحمق الرذل الدنيء . الدست : صدر البيت والمجلس وهي فارسية معربة ، واستعملها المتأخرون بمعنى الديوان ، ومجلس الوزارة والرئاسة وهو يريد هنا رياض باشا وكان رئيساً للوزارة التي خرج منها البارودي .

(٦) دولة الفسطاط : مصر .

(٧) المناخ : مبرك الإبل . الخطل : الخفة والحمق والمنطق الفاسد .

(٨) تأثل : تأصل .

(٩) العمياء : اللجاجة في الباطل . الزلل : مصدر من زل إذا انزلق في الطين ونحوه .

لَمْ أُدرِ ما حلَّ بالأبطال منْ خَوَرٍ ... بعد المِرَاس وبالأسْيَاف من فَلَلِ (١)

أصَوَّحَتْ شَجَراتُ المَجدأمْ نَضَبَتْ ... غُدُرُ الْحَمِيَّةِ حتى ليس من رجلِ (٢)

لا يدفعون يداً عنهـــم ولو بَلَغتْ ... مَسَّ العفَافةِ مِنْ جُبنٍ ومن خَزَلِ (٣)

فما لَكم لا تعاف الضَّيْمَ أنفسكم ... ولا تزولُ غواشيكم من الكَسَلِ (٤)

إن لم يكنْ لِلْفَتى عقلٌ يعيشُ به ... فإنما هُو معدودٌ من الهَمَلِ (٥)

فبادروا الأمرَ قبلَ الفَوت وانتزعوا ... شِكالَةَ الرَّيْثِ فالدُّنيا مع العَجَلِ (٦)

وقَلِّدُوا أمْرَكُمْ شَهماً أخا ثِقَةٍ ... يكون رِدْءاً لكم فى الحادث الجلَلِ

مَاضى البصيرةِ غَلَّابٌ إذا اشتبهت ... مَسَالكُ الرَّأى صَادَ البَازَ بالْحَجَلِ (٧)

إن قالَ بَرَّ وإن ناداه مُنتصرٌ ... لَبَّى وإنْ هَمَّ لم يَرْجِعْ بلا نَفَلِ (٨)

يجلو البَديهةَ باللَّفظِ الوجيز إذا ... عَزَّ الخطابُ وطاشت أسهمُ الجَدَلِ (٩)

---

(١) الخور : الضعف والجبن ، والمراس : شدة المعالجة وكثرة التجربة ، والفلل : الانثلام فى حد السيف .

(٢) صوحت : يبست وجفت . وغدر : جمع غدير وهو فى الأصل القطعة من الماء غادرها السيل ويقصد به هنا الجدول ومجرى الماء .

(٣) العفافة : مصدر عف يعف إذا كف عما لا يحل ولا يجمل . والخزل : انكسار الظهر ، والانخزال فى المشى التثاقل .

(٤) الضيم : الظلم والذل : وغواشيكم : جمع غاشية وهى ما يغشى الإنسان أى ينتابه . ومن الكسل : بيان .

(٥) من الهمل : من بمعنى فى : الهمل : جمع هامل أى ضال ومهمل لا راعى له .

(٦) شكالة : يريد شكال وهو العقال تقيد به الدابة ، ولا يوجد شكالة فى المعاجم . والريث : الإبطاء . يحرضهم على السرعة .

(٧) الباز : الصقر أو نوع منه . والحجل : نوع من الطيور الضعيفة ويريد أنه يستطيع حل الأمور المعقدة بقليل من الحيلة .

(٨) النفل : الغنيمة والجمع أنفال .

(٩) البديهة : الأمر الذى يبده الإنسان أى يفاجئه .

ولا تَلِجُّوا إذا ما الرأيُ لاَحَ لكم ... إنّ اللَّجاجَةَ مَدْعاةٌ إلى الفَشَل[١]

قَدْ يُدرِكُ المرءُ بالتَّدبير ما عَجَزَت ... عَنهُ الكماةُ ولَمْ يحْمِلْ عَلَى بَطَل[٢]

وطالبوا بحقوقٍ أصبحت غرضاً ... لِكلِّ مُنتزعٍ سَهْماً ومُختَتِل[٣]

ولا تخافوا نَكالاً فيه مَنْشؤكُمْ ... فالحوتُ في اليم لا يخشى من البَلَل[٤]

عَيْشُ الفتى في فِنَاءِ الذُّلِّ مَنْقَصَةٌ ... والموتُ في العِزِّ فَخْرُ السّادة النُّبَلِ[٥]

لا تتركُوا الجِدَّ أو يبدُوا اليقينَ لكم ... فالجِدُّ مِفتاحُ بابِ المطلب العَضُل[٦]

حتى تعودَ سماء الأَمْنِ ضاحِيَةً ... ويرفُلَ العدلُ في ضافٍ مِنَ الحُلَل[٧]

هَذِي نصيحةُ مَنْ لا يَبْتَغِي بَدَلاً ... بِكُمْ وهَلْ بعد قَوْمِ المرءِ من بدل

تحريض على الثورة

فيا قَوْمِ هُبوا إنما العُمرُ فُرْصةٌ ... وَفي الدَّهرِ طُرْقٌ جَمةٌ وَمَنافعُ

أَصَبْراً على مَسِّ الهوانِ وأنتُمُ ... عديدُ الحصى ؟ إنِّي إلى الله راجعُ

وَكيفَ تَرَونَ الذُّلَّ دارَ إقامةٍ ... وَذلكَ فَضْلُ اللهِ في الأَرْض واسعُ

أرى أَرْؤساً قد أَيْنَعَتْ لحِصادها ... فَأَيْنَ ـ ولا أَيْنَ ـ السُّيوفُ القواطعُ[٨]

---

(١) الفشل : الهزيمة

(٢) الكماة : جمع كمى وهو الفارس المدجج بالسلاح أو الشجاع .

(٣) مختتل : الذى يتسقط الأسرار . ومنتزع السهم : الذى يرمى الصيد بالسهم .

(٤) النكال : العقوبة . وفيه منشؤكم : أى أنكم نشأتم فى النكال .

(٥) النبل : ذوو النبل .

(٦) أو : هنا بمعنى إلى . والعضل : العسير الصعب .

(٧) رفل فى الثوب : مشى فيه اختيالا .

(٨) أرؤس : جمع رأس . وأينعت : نضجت وحان قطافها ، أى الرءوس على تشبيهها بالثمار . ومعنى أينعت لحصادها أنها نضجت وآن لها أن تحصد .

فكونوا حصيداً خامدين، أو افزعوا ... إلى الحرب حتى يَدْفَعَ الضَّيْمَ دافعُ[1]

أهَبتُ، فعاد الصَّوتُ لم يَقضِ حاجةً ... إليَّ ولَبَّانِي الصَّدى وَهْو طائعُ

فلم أدرِ أنَّ الله صَوَّرَ قَبلكم ... تماثيلَ لم يُخلقْ لَهُنَّ مَسَامعُ

فلا تَدَعُوا هَذِى القلوبَ فإنها ... قَوَارِيرُ مخنىٌّ عليهـا الأَضالعُ[2]

أسباب النورة

تَنكرَتْ مِصرُ بَعْدَ العُرفِ واضطربت ... قواعِدُ الملكِ حتى ريعَ طائِرُهُ[3]

فَأَهْمَلَ الأَرضَ جَرَّا الظُّلْمِ حَارثُها ... واسْترجع المالَ خوف العُدمِ تَاجره[4]

واستحكم الهولُ، حَتى ما يَبيتُ فتى ... فى جَوْشَنِ الليلِ إلّا وهْو ساهرُهُ[5]

وَيْلُمِّهِ سكناً، لولا الدَّفينُ به ... من المآثِرِ مَا كُنَّا نُجاوِرُهُ[6]

أرضى بهِ غَيرَ مَغْبوطٍ بِنعمتهِ ... وفى سِواهُ الْمُنى لولا عَشائِرُهُ[7]

---

(١) حصيداً : محصوداً .

(٢) يسخر منهم فى هذا البيت ، ويشبه قلوبهم بالقوارير فى الضعف .

(٣) تنكرت : تغيرت عن حال تسرها إلى حال تكرهها . والعرف : ضد النكر ، وهو كل ما تعرفه النفس من الخير وتطمئن إليه . وريع : أفزع ، وارتياع طائر الملك : كناية عن تزعزعه واضطرابه ، واختلال الأمن ، وشيوع الفوضى والفساد .

(٤) جرا الظلم : من جراء الظلم وبسببه أى أن الفلاح والزارع هجر الأرض لكثرة الضرائب والقسوة فى تحصيلها ، كما أن التاجر كف عن التجارة واسترجع ماله المتداول فى السوق .

(٥) جوشن الليل : وسطه أو صدره .

(٦) ويلمه : أصلها ويل لأمه ، ثم أضيف ويل إلى الأم ، وويل كلمة عذاب وشر . الدفين : المدفون . والمآثر : جمع مأثرة وهى المكرمة . ويريد بالدفين من المآثر : مكرمات آبائه وأجداده وآثارهم الصالحة . ويريد بالسكن مصر .

(٧) مغبوط : من الغبطة ، وهى أن تتمنى مثل حال المغبوط من غير أن تريد زوالها ، والغبطة أيضاً : حسن الحال والمسرة .

يا نفسُ لا تَجْزَعِي فالخيرُ مُنْتظَرٌ ... وصاحبُ الصبرِ لا تبْلَى مَرَائرُهُ[١]

لَعلَّ بُلْجَـةَ نُورٍ يُسْتضاءُ بها ... بَعدَ الظلامِ الذى عَمَّتْ دياجِرُهُ[٢]

إنى أرى أنفساً ضاقت بما حملتْ ... وسوف يَشهرُ حَدَّ السَّيف شاهرُهُ

شَهْرانِ أوبَعضُ شَهْرٍ إنْ هَى احتدمتْ ... وفى الجديدَين ما تُغْنِى فواقرُهُ[٣]

فإن أصبتُ فعَنْ رأْيٍ مَلَـكْتُ به ... عِلْمَ الغيوب ، ورَأْىُ المرء ناظِرُهُ[٤]

بعد الثورة

لقد خاض البارودى غمار الثورة ، وكان زعيما من زعمائها ، ولكن بعض رؤساء الجند خانوا الثوار ، وكانوا مثلا زريا فى النفاق وعلى الرغم من أيمانهم المغلظة فقد حنثوا فيها ، وقد وصف البارودى هذه المأساة ، وحاول أن يبرئ نفسه ، و علل لهزيمته ويصف تخاذل هؤلاء المنافقين وجبنهم وفرارهم من المعركة ، ويندم على زعامته لهم :

أضعتُ زمانى بينَ قومٍ لو أنَّ لى ... بهمْ غيرَهمْ ما أرْهقتنِى البَوائقُ[٥]

فإنْ أكُ مُلقى الرَّحلِ فيهم فإنَّنى ... لهمْ بالخلالِ الصَّالحاتِ مُفَارِقُ[٦]

معاشرُ ساروُا بالنِّفاقِ وما لهمْ ... أصولٌ أظَلَّتهَا فرُوعٌ بواسِقُ

---

(١) المرائر : جمع مريرة وهى عزة النفس والعزيمة .

(٢) البلجة : الضوء ، أو ضوء الصبح يقال : رأيت بلجة الصبح إذا رأيت ضوء آخر الليل عند انصداع الفجر . والدياجر : جمع ديجور وهو الظلمة .

(٣) (أو) هنا بمعنى الواو . . . والجديدان : الليل والنهار ويريد الدهر . والفواقر : جمع فاقرة وهى الداهية .

(٤) رأى المرء ناظره : أى أن الإنسان يتعرف برأيه الثاقب حقائق الأشياء وخفايا الأمور كأنه ينظر إليها بعينيه .

(٥) البوائق : جمع بائقة وهى الداهية والنازلة والشر الشديد وفى الحديث : « لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه » .

(٦) ملقى الرحل فيهم : كناية عن إقامته بينهم ومعنى هذا البيت قريب من بيت المتنبى :

وما أنا منهم بالعيش فيهـم ... ولكن معـدن الذهب الرغام

فأعلمُهُمْ عندَ الخصـــومةِ جاهلٌ ... وأتقاهمُ عندَ العـــفافةِ فاسِقُ(١)

طلاقةُ وجهٍ تحتها الغيظُ كاشِرٌ ... ونغمةُ وُدٍّ بينها الغـــدرُ ناعِقُ

وأخلاقُ صِبيانٍ إذا ما بلوْتهُمْ ... عَلِمْتُ بِأنَّ الجهلَ فى الناسِ نافِقُ(٢)

دعوْنِى إلى الجُلَّى ، فقُمْتُ مُبادِراً ... وإنِّى إلى أمثالِ تلكَ لَسابِقُ(٣)

فلمَّا استمرَّ الجِدُّ ساقُوا حُمُولَهمْ ... إلى حيثُ لم يبلُغْهُ حادٍ وسائِقُ(٤)

فلا رَحِمَ اللهُ امْرأً باعَ دينه ... بدُنْيا سِواهُ وهْوَ للحقِّ رامِقُ(٥)

عَلَى أنَّنى حذَّرْتهمْ غبَّ أمرِهم ... وأنذَرْتهمْ لوْ كان يفقهُ ماثِقُ(٦)

وقلتُ لهمْ كفُّوا عنِ الشرِّ تغنمُوا ... فللشرِّ يومٌ — لا محالةَ — ماحِقُ(٧)

فظنوا بقولى غيرَ ما فى يقينه ... على أنَّنى فى كلِّ ما قلتُ صادِقُ

فهلْ علمُوا أنِّى صدعتُ بحجَّتى ... وقدْ ظهرتْ بعدَ الخفاء الحقائقُ(٨)

فتبًّا لهمْ منْ معشرٍ ليسَ فيهمُ ... رَشيدٌ ، ولا مِنهمْ خليلٌ مصادِقُ(٩)

ظننتُ بهمْ خيراً فأُبتُ بحسرةٍ ... لها شجَنٌ بينَ الجوانحِ لاصِقُ(١٠)

فيالَيتنى راجعْتُ حلمى ولم أكنْ ... زعيماً ، وعاقتنى لذاكَ العوائقُ

---

(١) العفافة : الكف عما لا يحل ولا يجمل كالعفاف .

(٢) نافق : رائج ومنتشر .

(٣) الجلى : الأمر الشديد والخطب العظيم .

(٤) الحمول : الإبل التى عليها الهوادج ، وسوق الحمول هنا : كناية عن التخاذل والفرار . وحاد : اسم فاعل من الحدو وهو الغناء للإبل .

(٥) رامق : من رمقت الشىء أطلت إليه النظر .

(٦) غب أمرهم : عاقبة أمرهم . ماثق : أحمق .

(٧) ماحق : مهلك .

(٨) صدعت بالحجة : بينتها وأظهرتها . والاستفهام فى البيت للتوبيخ .

(٩) تبا لهم : هلاكاً وخسراناً .

(١٠) الشجن : الحزن .

ويا ليتنى أصبحتُ فى رأسِ شاهقٍ ... ولم أرَ ما آلتْ إليه الوثائقُ(١)

هُم عرَّضونى للقنا ثم أعرَضوا ... سراعاً ولم يطرُق من الشَّر طارق

وقدْ أقسموا ألاَّ يزُولوا فما بدا ... سنا الفجرِ إلا والنساء طوالقُ

مضوْا غيرَ معذورينَ لا النَّقعُ ساطعٌ ... وَلا البيضُ فى أيدى الكماةِ دَوالقُ(٢)

ولكنْ دعتهمْ نبأةٌ فتفرَّقوا ... كما انقضَّ فى سرْبٍ من الطير باشِقُ(٣)

فكم آبقٍ تلقاهُ منْ غيرِ طاردٍ ... وكم واقفٍ تلقاهُ والعقلُ آبِقُ(٤)

إذا أبصروا شخصاً يقولون جحفلٌ ... وجُبنُ الفتى سيفٌ لعينيه بارِقُ(٥)

أسودٌ لدى الأبياتِ بينَ نسائهمْ ... ولكنهمْ عندَ الهياجِ نقانقُ(٦)

إذا المرء لم يَنهضْ بقائم سيفه ... فيا ليتَ شعرِى كيف تُحمى الحقائقُ(٧)

---

(١) رأس شاهق : قمة جبل عال . والوثائق : جمع وثيقة وهىَ إحكام الأمر والأخذ فيه بالثقة ويريد العهود والمواثيق .

(٢) النقع : الغبار ويراد به هنا ما تثيره سنابك الخيل وحركات المتحاربين من الغبار ، وكذلك الدخان المنبعث من بعض القذائف والمدافع . ساطع : مرتفع ثائر . والبيض : السيوف . والكماة : جمع كمى وهو الفارس المدجج بسلاحه أو فى كامل عدته . ودوالق : جمع دالق : من دلق السيف دلوقاً خرج من غمده ، والمعنى أنهم تركوا ساحة الوغى وفروا من ميدان القتال بلا عذر قبل أن يحد الجد ، ويحمى الوطيس ، ويستحر بينهم وبين أعدائهم الجلاد والقتال .

(٣) نبأة : صوت . والسرب : الجماعة من الطير والظباء والوحش والخيل والحمير والنساء وغيرها . والباشق : طائر من الجوارح أى الطيور التى تجرح وتفترس والمعنى : أنهم سمعوا صوتاً ضعيفاً ، فاستولى عليهم الفزع ، وتملكهم الخوف ، وتفرق جمعهم كما يتفرق الطير إذا انقض عليها جارح من الجوارح .

(٤) آبق : هارب .

(٥) الجحفل : الجيش الكبير .

(٦) النقانق : جمع نقنق (بكسر فسكون) وهو ذكر النعام ويضرب به المثل فى الجبن وسرعة الفرار .

(٧) قائم السيف : مقبضه . وليت شعرى : ليتنى أشعر وأعلم . والحقائق : جمع حقيقة وهى ما يلزمك حمايته والدفاع عنه من أهل وعرض وغيرهما .

ذكريات الثورة

نفى البارودى إلى جزيرة « سرنديب » عقاباً على اشتراكه فى الثورة ، وكان له أعداء بمصر ، واتهموه بأنه ثار لخلع الخديو توفيق حتى يطيلوا مدة نفيه ، فأخذ يبرر ثورته ويذكر الأسباب التى دعته للثورة ، من الظلم والفساد المنتشر ، واستبداد الحاكم والنفاق وغير ذلك ، ويحمل على هؤلاء الأدنياء الذين رضوا بالذل ونافقوا ، وباعوا وطنهم رخيصاً فى سبيل شهواتهم . وهذه القصيدة تبين لنا نفسية البارودى على حقيقتها ، كما تبين لنا العوامل الحقيقية التى أدت إلى الثورة العرابية :

كفى بمقامى فى « سرنديبَ » غربةً ... نزعتُ بها عنى ثيابَ العلائقِ (١)

ومنْ رامَ نيلَ العزِّ فليصطبرْ على ... لِقَاء المنـــايا ، واقتحامِ المضايقِ

فإن تكُنِ الأيامُ رَنَّقْنَ مَشْرَبى ... وثَلَّمْنَ حدِّى بالخطوبِ الطوارقِ (٢)

فما غيَّرتنى محـــنةٌ عنْ خليقتى ... وَلا حوَّلتنى خُدعةٌ عنْ طرائقى (٣)

ولـكنَّنى باقٍ على ما يَسُرُّنى ... ويُغضبُ أعدائى ، ويُرْضى أصَادِقى

فحسرَةُ بُعْدى عنْ حبيبٍ مُصادقٍ ... كفرْحةِ بُعْدِى عنْ عدُوٍّ مُماذِقِ (٤)

فذلكَ بِهـــذى والنَّجاةُ غنيمةٌ ... منَ الناسِ ، والدُّنيا مكيدةُ حاذِقِ

ألا أيها الزَّارِى علىَّ بجهـــله ... ولم يدْرِ أنِّى دُرَّةٌ فى المفارقِ (٥)

تعزَّ عنِ العلياءِ باللؤمِ واعْتَزِلْ ... فإنَّ المُلا ليستْ بلَغوِ المناطِقِ

فما أنَا مِمَّنْ تَقبلُ الضَّيمَ نفسُه ... ويرْضى بِما يرْضى به كلُّ مَائِقِ (٦)

---

(١) العلائق : الصلات والروابط .

(٢) رنقن : كدرن . وثلمن : فللن وكسرن .

(٣) الخليقة : الطبيعة ، والطرائق : جمع طريقة وهى المذهب .

(٤) مماذق : غير مخلص من ماذق فى الوداد أى كذب ونافق .

(٥) الزارى : المستهزئ والعائب . ودرة فى المفارق : يقصد أنه مشهور رفيع المقام .

(٦) مائق : أحمق غبى .

إذا المرءُ لم ينهضْ لما فيه مجدُه ... قضى وَهْوَ كَلٌّ فى خُدور العواتقِ (١)

وأىُّ حياةٍ لامرئٍ إن تنكرَت ... لهُ الحالُ لم يعقدْ سُيورَ المناطقِ (٢)

يقولُ أُناسٌ إننى ثُرْت خالعاً ... وتلكَ هَناتٌ لم تكنْ من خَلائقى (٣)

ولـكننى ناديتُ بالعدلِ طالباً ... رضا الله واستنهضتُ أهْلَ الحقائقِ (٤)

أمرتُ بمعروفٍ ، وأنكرْتُ منكراً ... وذلك حكمٌ فى رِقابِ الخلائقِ

فإنْ كان عصياناً قيامى فإنَّنى ... أردْتُ بعصيانى إطَاعةَ خالقى

وهلْ دَعوةُ الشُّورى عَلَىَّ غضاضةٌ ... وفيها لِمن يَبْغى الهدَى كلُّ فارقِ (٥)

بَلى إنها فرْضٌ منَ اللهِ واجبٌ ... على كلِّ حَىٍّ منْ مسوقٍ وسائقِ (٦)

وكيفَ يكونُ المرء حُرًّا مهذباً ... ويرضى بما يأتى به كلُّ فاسقِ

فإن نافقَ الأقوامُ فى الدِّين غَدرةً ... فإنِّى بحمدِ اللهِ غيرُ مُنافق

---

(١) كل : ثقيل لا خير فيه وعالة على سواه . والعواتق : جمع عاتق وهى الشابة أول ما أدركت أو الفتاة التى لم تتزوج .

(٢) المناطق : جمع منطق أو منطقة وهو كل ما شددت به وسطك ومثلها النطاق وقريب منه الحزام ، وعقد سيور المناطق : كناية عن الاستعداد للأمر .

(٣) خالعاً : خارجاً عن الطاعة . وهنات : خصال سوء وأخطاء . وخلائق : طبائعى .

(٤) الحقائق : جمع حقيقة وهى ما يحق عليك أن تحميه وتدافع عنه .

(٥) فارق : المراد من يفرق بين الحق والباطل .

(٦) يريد بالمسوق : المحكوم ، وبالسائق : الحاكم .

ج — الشاعر الوصاف

وصف غيضة

وقال البارودى يصف غيضة احتلها فى قندية بجزيرة كريت أيام الحملة التى أرسلها إسماعيل لمعاونة الخليفة فى قمع الثوار . وهذه القطعة تدل على إعجاب البارودى بالجمال ، وبالمناظر الطبيعية ، وعلى شدة حساسية بمفاتن الوجود * :

ومُرْتَبَعٍ لَذْنَا به غِبَّ سُحْرَةٍ ... وللصُّبْح أنفاسٌ تزيدُ وتنقصُ(١)

وقد مال للغرب الهلالُ ، كأنه ... بمنقاره عن حَبَّة النجم يَفْحصُ(٢)

رقيق حواشى النَّبتِ ، أمَّا غصونُه ... فَرَيَّا ، وأمَّا زهرُه فمَنَصَّصُ(٣)

إذا لاعَبَتْ أفنانَهُ الريحُ خِلْتَها ... سلاسِلَ تُلْوَى أو غدائرَ تُعْقَصُ(٤)

(*) الغيضة : الأجمة ، ومجتمع الشجر فى مفيض ماء . قندية إحدى مدن جزيرة كريت .

(١) المرتبع : المكان الذى يرتبع فيه القوم ، أى يقيمون به زمن الربيع ، ولذنا به : لجأنا إليه ، وغب : بعد . والسحرة : آخر الليل قبل الصبح ؛ وزيادة أنفاس الصبح ونقصانها : كناية عن طلوع الفجر ، وتردده بين ظلمة الليل وضياء النهار .

(٢) يفحص : يبحث وبابه (منع) . وفى هذا البيت إشارة إلى أن الليلة التى يصفها كانت فى آخر الشهر العربى ، وقد يسمى القمر لليلتين من آخر الشهر هلالا ، كما يسمى لليلتين من أوله هلالا ، وقد رجح كونه فى آخر الشهر هنا أن الهلال ظل حتى الصباح قبل أن يغرب . وحبة النجم : النجم الشبيه بالحبة ، فلما شبه الهلال بالطائر ، ورمز إليه بالمنقار حسن تشبيه النجم بالحبة ، وفى تشبيه الهلال بالطائر يقول على بن محمد الكاتب :

بـــدا مستدق الجانبين كأنه ... على الأفق الغربى مخلب طائر

ولأح لمسرى ليلتين كأنمـــا ... تفرق منه الغيم عن إثر حافر

(٣) رقيق : صفة لمرتبع فى البيت الأول ، وحواشى النبت : جوانبه وأطرافه ، وريا : مؤنث ريان صفة من الرى والمراد أنها غضة نادرة . ومنصص : ظاهر مرفوع ، بعضه فوق بعض .

(٤) خلتها : ظننتها والضمير يعود على الأفنان . والغدائر : جمع غديرة وهى الذؤابة من الشعر إذا كانت مرسلة غير ملوية ولا معقوصة . تعقص : تضفر ، وقريب من المعنى الذى أراده البارودى قول صفى الدين الحلى :

وكأنما الأغصان سوق رواقص ... قد قيدت بسلاسل الريحـــان

محمود سامى البارودى

كأنّ صحاف الزّهر والطّلّ ذائبٌ ... عيونٌ يسيلُ الدّمْعُ منها وتشْخَصُ (١)

يكادُ نسيمُ الفجرِ إنْ مَرَّ سُحْرَةً ... بساحتِه الشجراء لا يَتَخَلَّصُ (٢)

كأنّ شعاعَ الشمس والريحُ رَهْوةٌ ... إذا رُدَّ فيه سارق يتربّصُ (٣)

يَمُدُّ يدًا دونَ الثمارِ ، كأنما ... يحاولُ منها غاية ، ثم يَنْكَصُ (٤)

عَطَفْنَا إليهِ الخيلَ فَلَّ مَسِيرَةٍ ... وللقومِ طَرْفٌ من أذَى السُّهْدِ أخْوَصُ (٥)

فما أبصرتهُ الخيلُ حتى تَمَطَّرتْ ... بفُرْسانها، واستَتلَعَتْ كيف تَخْلُصُ (٦)

---

(١) الصحاف : آنية الطعام التى يؤكل فيها ، الواحدة صحفة وهى أصغر من الجفنة ، وقد شبه الشاعر الزهر بالصحاف . والطل : الندى وقطرات الماء التى تسقط على أوراق الشجر والزهر فى الصباح . تشخص : تنفتح ، ولا تطرف (وبابه خضع) . وأنت ترى أنه شبه أوراق الزهر بالصحاف ، ثم شبه هذه الصحاف وعليها الندى بالعيون المفتوحة الممتلئة بالدموع .

(٢) ساحته : ناحيته ، أى المرتبع . والشجراء : الكثيرة الشجر . يصفه بكثافة أشجاره كثافة لا يستطيع أن يتخلص منها نسيم السحر مع رقته .

(٣) الرهو : الرقيق ، والسير السهل الخفيف . ورد فيه : رجع ، أى الشعاع ، والمراد تردد ، والضمير المجرور يعود على المرتبع . ويتربص : ينتظر والمعنى : أن أشعة الشمس تسقط على غصون هذا المرتبع فتهزها الريح اللطيفة الهينة فتتحرك الأشعة بتحرك الغصون ، فتنفذ من خلالها مرة ، وتحجب أخرى ، كأنها لص يتردد بين الإقدام والإحجام ، وقد وصف المتنبى هذه الأشعة التى تنفذ من خلال الأغصان ثم تختفى بأنها (دنانير تفر من البنان) ، وقد قال صفى الدين الحلى فى الظل الذى يروح ويجىء تبعاً لاهتزاز الأشجار : (والظل يسرق بين الدوح خطوته) .

(٤) يمد : يريد الشعاع . ويحاول : من المحاولة وهى طلب الشىء بالحيلة . وينكص : يحجم ويرجع ويتأخر .

(٥) عطفنا إليه الخيل : أملناها إليه ، يريد المرتبع ، وفل مسيرة : منفلة متثلمة متعبة من السير (حال للخيل) ، والقوم : الجند . الطرف : العين ، وأخوص : ضيق صغير غائر من السهر والسهد . يعنى أنهم مالوا إلى هذا المرتبع وخيولهم متعبة ، والجند قد أجهدهم السفر والسهر فعيونهم غائرة .

(٦) تمطرت : أسرعت وجرت . واستتلعت : ليس بالمعجمات التى بين أيدينا استتلعت وإنما بها تلع ، إذا مد العنق متطاولا ، وزيادة الهمزة والسين والتاء قياسية عند بعض الصرفيين ، فمعنى استتلعت : طلبت وحاولت مد أعناقها . والمعنى : أن هذه الخيل ما كادت تبصره حتى أسرعت إليه مرحة نشيطة ، ومدت أعناقها لترى كيف تخلص إليه ، وتغدو مسرعة عليه

مدى لحظة حتى أتته وماؤه على زهره ، والظل لا يتقلص (١)

فمدت به الأعناق تعطو وتختلى نهاباً ، وتغلى فى النبات وترخص (٢)

أقمنا به شمس النهار وكلنا على مابه من شدة العجب يحرص (٣)

فلما استرد الشمس جنح من الدجى وأعرض تيهور من الليل أعوص (٤)

دعونا بأسماء الجياد فأقبلت لواعب فى أرسانها تترقص (٥)

وقمنا وكل بعد ما كان لاهياً بأظلاله كره الرحيل مغمض (٦)

فلله عينا من رأى مثل حسنه وما أنا فيما قلته أتخرص (٧)

---

(١) مدى لحظة : المدى الغاية ويريد أن الخيل قد وصلت إليه فى زمن قليل جداً قدره مدى لحظة . وماؤه على زهره : أى أتته وقت الصباح قبل إشراق الشمس وذهاب الندى . ويتقلص : ينزوى ويتقبض . وظله لا يتقلص : أى ظل دائم وارف .

(٢) به : بالمرتبع . تعطو : تتناول . وتختلى : تقطع الحلى وتأكله وهو العشب الرطب الرقيق ، أما إذا يبس فهو الحشيش . والنهاب : جمع نهب (بفتح وسكون) ، وهو الغنيمة أو مصدر ناهب وهو منصوب على الحال أى ناهبة . وإغلاؤها وإرخاصها فى النبات : كناية عن تصرفها فيه ، وتقلبها فى نواحيه فهى ترتع وتأكل كما شاءت .

(٣) إننا أقمنا بذلك المرتبع طول النهار ، وكل منا يحرص على ما فى نفسه من الإعجاب بهذا المرتبع .

(٤) استرد الشمس : طلب ردها والمراد أخفاها وغيبها . والجنح : الطائفة والجانب . والدجى جمع دجية وهى الظلمة . وأعرض : ظهر . والتيهور : موج البحر المرتفع ، والمراد ظلمات الليل على التشبيه . وأعوص : صعب شديد . وهو يصف إدبار النهار وإقبال الليل بظلماته وأهواله .

(٥) دعونا : جواب لما فى البيت السابق . والجياد : كرام الخيل جمع جواد . واواعب : جمع لاعب أو لاعبة . وأرسانها : أزمتها وأعنتها الواحد رسن (بفتحتين) وهو الحبل . وتترقص : ترقص وترتفع وتنخفض فى لعب ومرح .

(٦) يقول : وقمنا من ذلك المرتبع وكل واحد منا مكدر بسبب كراهيته للرحيل ، ومغادرة هذا المكان الجميل ، بعد ما كان لاهياً فى ظلاله .

(٧) لله عينا : تركيب يفيد المدح والتعجب . لأن الشىء يكمل ويعلو قدره ، ويعظم شأنه إذا نسب إلى الله مصدر الكمال والعظمة والجلال . وأتخرص : أكذب؟ والمعنى : من رأى مثل حسن ذلك المرتبع فلله عيناه ؛ لأنه رأى ما يبهج ويسر ويعجب ، ولست كاذباً فيما قلته ووصفته به من الحسن والروعة وفى رواية (فلله عينا من أرى مثل حسنه) أى أرى غيره .

ظَفِرْتُ به فى حِقْبَـةٍ ، فَقَنَصْتُه على غِرَّةِ الأيَّامِ واللهوُ يُقْنَصُ[١]

وصف الريف فى الربيع

كان البارودى يجد فى ريف مصر الراحة والهدوء ، والمجال العذب ، وكثيراً ما فر إليه من متاعب السياسة ودنيا الجهاد ، يجدد نشاطه ويتزود من نعيمه وفيه يقول :

دنيـا نعيمٍ تكاد زهرتهـا تُزْرِى على الشمس وهى مُزْدهره

وقد وصفه فى قصائد شتى ، مما يدل على شغف بالطبيعة فى مختلف مظاهرها : وعلى محبة صادقة لمصر ، فإن الإعجاب يولد الحب ، وكان البارودى من المعجبين بجمال الطبيعة المصرية . والقطعة التى اخترناها هنا تمثل منظراً من مناظر الريف ، وهى تسجيل سريع لهذا المنظر فى موسيقية عذبة :

عَمَّ الْحَيَا واسْتَنَّتِ الجـداولُ وفاضَتِ الغُدْرانُ والمَناهِلُ[٢]
وازَّيَّنَتْ بِنَوْرِها الخمائِلُ وَعَرَّدَتْ فِى أيْكِها البَلابِلُ
وَشَمِلَ الْبِقَاعَ خَـيْرٌ شَامِلُ فَصَفْحَةُ الأَرْضِ نباتٌ خائِلُ[٣]
وَجَبْهَةُ الْجَوِّ غَمَامٌ حافِلُ وَبَيْنَ هٰـذَيْنِ نَسيمٌ جائِلُ[٤]
تَنْدَى به الأَسْحارُ والأَصائِلُ كَأَنَّما النَّبَاتُ بَحْرٌ هائِلُ[٥]

---

(١) به : أى بالمرتبع . والحقبة : المدة من الزمن . وقنصته : صدته . وعلى غرة : على غفلة .

(٢) الحيا : المطر . واستنت : من استن الماء انصب والمراد هنا نشطت . والجداول : جمع جدول وهو النهر الصغير . والغدران : جمع غدير وهو فى الأصل قطعة من الماء غادرها السيل والمراد هنا الجداول ومجارى المياه . والمناهل : جمع منهل وهو الموضع الذى فيه المشرب .

(٣) النبات : اسم شامل لكل ما تنبته الأرض من شجر وزرع وغيره . وخائل : ذو خيلاء أى معجب بنفسه من خال الرجل فهو خائل .

(٤) حافل : ممتلئ بالماء . وجائل : يدور هنا وهناك ويطوف بكل مكان .

(٥) تندى به : تأتى به أى أنه يهب فى الأسحار والأصائل . والأسحار : جمع سحر : وهو الوقت قبيل الفجر وفيه يكون الهواء رقيقاً لطيفاً . والأصائل : جمع أصيل وهو قبل غروب الشمس . وهائل : عظيم .

وَلَيْسَ إلا الأكَماتُ ساحِلُ ... وشامخُ الدَّوْحِ سَفِينٌ جافِلُ(١)

مُعْتَدِلٌ طَوْراً وطَوْراً مائِلُ ... تَهْفو به الجنوبُ والشمائِلُ(٢)

والباسِقاتُ الشُّمَّخُ الحوامِلُ ... مَشْمُورةٌ عَنْ سُوقِها الذَّلاَذِلُ(٣)

مَلْوِيَّةٌ فِي جِيدِها العَثَاكِلُ ... مَعْقُودةٌ فِي رَأْسِها الفَلاَئِلُ(٤)

لِلْبُسْرِ فيها قانِئٌ وناصِلُ ... مُخَضَّبٌ كأَنَّه الأَنامِلُ(٥)

كأَنَّهُ مِنْ ذَهَبٍ قَنَادِلُ ... مِنَ العَرَاجِينِ لها سَلاَسِلُ(٦)

لِلْمُنْجِنونِ بَيْنَها أَزَامِلُ ... تَخَالُها مَحْزُونةً تُسَائِلُ(٧)

لَهَا دُمُوعٌ ذُرَّفٌ هَوَامِلُ ... كأَنَّها أُمُّ بنينَ ثاكِلُ(٨)

---

(١) الأكمات : جمع أكمة وهى التل . والدوح : جمع دوحة وهى الشجرة العظيمة من أى نوع ، وجافل : مضطرب ومتحرك .

(٢) تهفو به : تميل به وتحركه . والجنوب والشمائل : الريح التى تهب من جهة الجنوب ، والريح التى تهب من جهة الشمال . والشمائل : جمع شمال على غير قياس .

(٣) الباسقات : يريد بها النخل الطويلة . الشمخ : المرتفعة . الحوامل : جمع حامل وهى الشجرة المثمرة ، والذلاذل : هى فى الأصل أطراف القميص السفلى ، ويريد هنا أن ساق النخلة عار من الجريد والسعف .

(٤) الجيد : العنق . والعثاكل : جمع عثكول وهو العذق أو الشمراخ وهو فى النخل بمنزلة العنقود فى العنب . والفلائل : جمع فليلة وهى الشعر المجتمع ويريد أعلى النخلة وأطراف الجريد .

(٥) البسر : البلح لون ولم ينضج . وقانئ : شديد الحمرة . وناصل : من نصل الشعر إذا زال عنه الخضاب ، ويريد به البلح الذى تشوبه حمرة .

(٦) القنادل : جمع قنديل وهو المصباح والقياس قناديل ولم يسمع قنادل . والعرجون : أصل العذق الذى يعوج وتقطع منه الشماريخ فيبقى على النخل يابساً .

(٧) المنجنون : يريد بها هنا الساقية . الأزامل : الأصوات المختلطة جمع أزمل (كجعفر) بينها : الضمير يعود على باسقات .

(٨) ذرف : سائلة وهو جمع ذارف وذارفة ولم نره فى معاجم اللغة والمعروف الذوارف وربما قاسه على ركع وراكع . وهوامل : جمع هامل وهاملة من هملت العين وفاض دمعها ، والسماء دام مطرها فى سكون وضعف . والثاكل : المرأة فقدت ولدها .

فِي جِيـــدِها مِنْ ضَفْرِها حَبَائِلُ مِنَ القَوَادِيسِ لها جَلاَجِلُ[١]
تَدُورُ كالشُّهْبِ لَهَا منازِلُ فصاعِـدٌ وَدافِقٌ ونازِلُ[٢]
والماء ما بَين الغِيَاض سائلُ تَحْنُو عَلَى شُـطَّانه الغَيَاطِلُ[٣]
كأنها حوائمٌ نَوَاهِـــلُ والطيرُ فى أفْنَانِها هَوادِلُ[٤]

يصف ليلة مطيرة

وللبارودى من قصيدة قالها وهو فى منفاه بسرنديب ، يتذكر فيها أيامه الخوال ، وكيف كان يقود جيشه ، والكل يطيعه ، ويسيرون حيث يسير .

إنْ سرتُ ساروا و إن أصْعَد إلى نَشَزٍ كانوا صعوداً ، و إن أهْبِطْهم هَبَطوا[٥]

وأنه على الرغم من ضعف منه وشيخوخته لا يزال فيه قوة ، وكم يود أن يعود مثل ذلك اليوم الذى هطلت فيه السماء وهو فى جنده فلاذوا بغيضة يحتمون بها . ولعله كان يتذكر تلك الأيام التى قضاها فى جزيرة « كريت » . وقد كان بها فرحاً ، لأنها أشبعت نفسه ، وحققت أمله فى الجندية وكانت أول حملة خرج إليها وهو فى ريعان الصبا وغضارة الشباب ، فطبعت فى ذاكرته مناظر وذكريات لا تمحى على مر السنين :

---

(١) فى جيدها : الجيد العنق ، والضمير يعود على الساقية . وضفرها : شعرها المنسوج ، ويقصد الحبال الغليظة التى تربط بها القواديس والحبائل : جمع حبل على غير قياس ، والقياس حبال . من القواديس : بيان لجلاجل مقدم عليه ، والقواديس : جمع قادوس وهو إناء من خزف أصغر من الجرة واسع الفم يخرج به الماء من الساقية . الجلاجل : جمع جلجل (بضم الجيمين) وهو الجرس الصغير .

(٢) تدور : تسير فى دائرة . كالشهب : يريد بها النجوم السيارة . ومنازل : أماكن مقدرة مثل منازل القمر والشمس .

(٣) الغياض : جمع غيضة وهى الأجمة ومجتمع الشجر فى مغيض الماء . وشطانه : جمع شط وهو ضفة النهر . والغياطل : جمع الغيطلة وهى جماعة الشجر الملتف .

(٤) الحوائم : جمع حائمة وهى التى تدور حول الشىء . ونواهل : جمع ناهلة وهى التى نهلت الماء فرويت . والأفنان جمع فنن وهو الغصن . وهوادل : جمع هادلة من الهديل وهو صوت الحمام .

يصف الأشجار وهى تميل على الماء بأنها كالطيور بعضها يحوم حول الماء ولم تصل إليه بعد ، وبعضها قد نهل منه وروى ، والطيور تصدح فوق أغصانها ، أى أن بعض فروع الشجر قد مس الماء وبعضه لم يمسه وهو فى تحركه بفعل الهواء والنسيم يشبه الطير الحائم .

(٥) النشز : المرتفع من الأرض .

وَلَيْلَةٍ ذَاتِ تَهْتَانٍ وَأَنْدِيَةٍ ... كَأَنَّمَا البَرقُ فيها صارمٌ سَلِطُ (١)

لَفَّ الغَمَامُ أَقَاصِيهَا بِبُرْدَتِهِ ... وانهلَّ مِنْ حَجْرَتَيْهَا وابلٌ سَبِطُ (٢)

بَهْمَاءَ لا يَهْتَدِي السَّارِي بِكَوْكَبِهَا ... مِنَ الغَمَامِ ، ولا يَبْدُو بِهَا نَمَطُ (٣)

يَكَادُ يَجْهَلُ فِيهَا القَوْمُ أَمْرَهُمُ ... لَوْلا صَهِيلُ جِيَادِ الخَيْلِ واللَّغَطُ (٤)

يَطْغَى بِهَا البَرقُ أَحْيَانًا فَيَزْجُرُهُ ... مُخَرْنِطٌ زَجِلٌ مِنْ رَعْدِهَا خَمِطُ (٥)

كَأَنَّمَا البَرقُ سَوْطٌ والحَيَا نُجُبٌ ... يَلُوحُ فِي جِسْمِهَا مِنْ مَسِّهِ حَبَطُ (٦)

---

(١) التهتان : مطر ضعيف دائم . وأندية : جمع ندى وهو البلل . والصارم : السيف القاطع . والسلط : الذى لا نتوء فى نصله . يصف الليلة بأنها دائمة المطر والبلل كثيرة البرق ، وكأن البرق سيف قاطع لا انثلام فى نصله فهو ماض سريع القطع .

(٢) أقاصيها : المراد هنا أطراف السماء وآفاتها . والبردة : كساء يلتحف به . وانهل : انصب وسال بشدة . وحجرتاها : ناحيتاها . ووابل : مطر غزير شديد . وسبط : شديد متدارك ، والمعنى : أن هذه الليلة قد لف الغمام فيها أطراف السماء من كل ناحية ، وأخذ ينصب المطر بشدة وعنف وتدارك .

(٣) بهماء : سوداء مظلمة ، وهى صفة لليلة . والسارى : السائر ليلا . والنمط : الطريق . و « من الغمام » فى الشطر الثانى : تعليل لعدم اهتداء السارى بكوكبها . وهو يصف الليلة بأنها حالكة السواد ، وبأن الغمام فيها مطبق كثير متراكم .

(٤) اللغط : الأصوات المختلطة المبهمة والجلبة . وجياد الخيل : كرامها . والمعنى : أن المرء يكاد لا يرى أخاه ، فيجهل أمره ومكانه لشدة الظلمة واحتجاب النجوم وراء السحاب المتراكم بل يكاد يحسب نفسه وحيداً لولا ما يسمع من صهيل الخيل ، وجلبة المعسكر .

(٥) يطغى : يزيد ويعظم ويشتد . يزجره : ينهاه وينتهره ، مخرنطم : غضبان وهو اسم فاعل من اخرنطم الرجل رفع أنفه واستكبر وغضب . زجل : عالى الصوت . ومن رعدها : بيان لزجل . خمط : غضوب .

وهو يعلل لصوت الرعد القوى الشديد بأنه ينهر البرق حين يزيد ويكثر ، وكأن الرعد رجل غضبان يزجر غيره بشدة وعنف .

(٦) السوط : الذى يجلد به كالمقرعة ونحوها . الحيا : المطر والمراد السحب . النجب : كرام الخيل والإبل وعتاقها وجيادها واحدها نجيب . يلوح : يبدو ويظهر . مسه : بسبب مسه وأذاه وضره ، أى السوط . الحبط : آثار السياط بالبدن أو الآثار الوارمة التى لم تشقق .

جعل البرق وهو يبدو متألقاً فى السحاب كالسوط تضرب به النجائب ، لما يشاهد فى كلا الحالين من حركة سريعة متوالية متقطعة ، وجعل ما يظهر من غلظ السحب وتراكمها فى بعض نواحى السماء كآثار السياط فى أجسام هذه النجب .

كأنّه صارمٌ يَرْفَضُّ مِنْ عَلَقٍ ... بالأُفْقِ يُغْمَدُ أحْياناً ويُخْتَرَطُ (١)

مَزَّقْتُ جِلْبَابَها بالخَيْلِ طالِعَةً ... مِثْلَ الحمائِمِ فى أجيادِها العُلَطُ (٢)

وقَدْ تَخَلَّلَ خَيْطَ النُّورِ ظُلْمَتَها ... كما تَخَلَّلَ شَعْرَ اللِّمَّةِ الوَخَطُ (٣)

كأنّها وصَدِيعُ الفَجْرِ يَصْدَعُها ... من جانبٍ أدْهَمُ قَدْ مَسَّهُ نَبَطُ (٤)

ومَرْبَعٍ لنسيمِ الفَجْرِ هَيْنَمَةٌ ... فيهِ وللطيرِ فى أرجائه لَغَطُ (٥)

كأنّما القَطْرُ دُرٌّ فى جوانبِه ... يَكادُ من صَدَفِ الأزهارِ يُلْتَقَطُ (٦)

---

(١) الصارم : السيف القاطع . يرفض : يسيل ويقطر ويتفرق . العلق : الدم . يغمد : يدخل فى غمده . يختَرط : يسل ويجرد من غمده . شبه البرق فى طوله ولمعانه وتفرق الحمرة فى جوانبه بسيف قاطع يقطر منه الدم . ثم جعل ظهور البرق واختفاءه كتجريد السيف وإغماده .

(٢) مزقت جلبابها : يريد أنه سار فى ظلمائها فى سرعة ومضاء . أجيادها : أعناقها جمع جيد (بكسر الجيم) . والعلط : جمع علاط وهو من الحمامة طوقها فى صفحتى عنقها بسواد ، والعلاط أيضاً ، حبل يجعل فى عنق البعير ونحوه .

يقول : إنه مزق جلباب هذه الليلة ، وشق ثيابها بالخيل طالعة كالحمائم فى خفتها وسرعة جريها ، ثم شبه ما يكون فى أجيادها من المقاود والأعنة بأطواق الحمائم ، والمعنى : أنه ركب وسافر فى هذه الليلة المظلمة الماطرة . وتشبيه الخيل بالطير فى سرعتها قديم جداً ومن ذلك قول النابغة الذبيانى :

والخيل تمزع غرباً فى أعنتها ... كالطير فاجأها الشؤبوب ذو البرد

(٣) خيط النور : كناية عن بياض الصبح . واللمة : ما جاوز شحمة الأذن من شعر الرأس . والوخط : الشيب القليل . والبيت وصف لطلوع الفجر فى تلك الليلة .

(٤) كأنها : أى الليلة . والصديع : الفجر لأن الليل ينصدع أى ينشق عنه ، والصديع أيضاً . انصداع الصبح أى انتظاره وانفلاقه . ويصدعها : يشقها . وأدهم : فرس أسود . والنبط بياض بطن الفرس . يقول : كأن هذه الليلة ونور الفجر يشقها من بعض جوانبها فرس أدهم فى بطنه بياض .

(٥) المربع : الموضع الذى يرتبع فيه القوم ، أى يقيمون به زمن الربيع . والهينمة : صوت كأنه كلام خفى لا يفهم ، أو قراءة غير بينة . والأرجاء : جمع رجا وهو الناحية . واللغط : الجلبة والأصوات المختلطة .

(٦) القطر : يريد به الندى وقطرات الماء التى على أوراق الشجر والزهر . والدر : اللآلىء . والصدف : المحار . وصدف الدرة : المحار الذى يشتمل عليها ويغطيها . شبه القطر والندى المتناثر على جوانب هذا المربع بالدر فى صفائه ونقائه ولمعانه ، وجعل الأزهار المشتملة على الندى صدفاً لذلك الدر وغلافاً ، ثم أغرق فى التشبيه فقال : إن هذا الندى يكاد يؤخذ ويلتقط من صدف الأزهار .

وللنسيمِ خِلالَ النبتِ غَلْغَلَةٌ ... كما تَغَلْغَلَ وَسْطَ اللِّمَّةِ المُشُطُ[١]

والريحُ تمحو سطوراً ثُمَّ تُثْبِتُها ... فى النَّهْرِ لا صِحَّةٌ فيها ولا غَلَطُ[٢]

وللسماء خيوطٌ غيرُ واهيةٍ ... تكادُ تُجْمَعُ بالأيدى فَتُرْتَبَطُ[٣]

كأنَّها وأكفُّ الريح تَضْرِبُها ... سُلوكُ عِقْدٍ تواهت فهى تَنْخَرِطُ[٤]

فالضَّوءُ مُحْتَبِسٌ والماءُ مُنْطَلِقٌ ... والجوُّ مُنْقَبِضٌ والظِّلُّ مُنْبَسِطُ[٥]

لُذْنَا بأطرافِه والطيرُ عاكفةٌ ... عَلَيْهِ، والنورُ بالظَّلْماء مُخْتَلِطُ[٦]

---

(١) خلال النبت : بينه ووسطه وحواليه . وغلغلة : إمعان وسرعة ، وتغلغل : دخل . واللمة : الشعر المجاور شحمة الأذن والمراد هنا شعر الرأس مطلقاً . يقال : إن النسيم يتغلغل خلال النبات ، كما يتغلغل المشط وسط الشعر .

(٢) لا صحة فيها ولا غلط : لأنها ليست كتابة ، فلا توصف بصحة ولا غلط . وفى هذا البيت يصف ما تحدثه الريح بمياه الجداول والأنهار ، فهى تثبت على سطح الماء موجات خفيفة هادئة تشبه سطور الكتابة ، ثم تمحو ما أثبتته ، وهكذا دواليك ، على أنها ليست كتابة بالمعنى المعروف حتى توصف بالصحة أو الغلط .

(٣) خيوط السماء : يريد بها ما تساقط وتتابع من مطرها كالسلوك ، واهية : ضعيفة . وترتبط : تربط وتشد .

(٤) كأنها : أى الأمطار الشبيهة بالخيوط والأسلاك ، والسلوك : الخيوط . والعقد : القلادة . وتواهت : بليت وضعفت ولم تجد (تواهت) فى المعجمات التى بين أيدينا . وتنخرط : تنتثر وتتفرق ، مطاوع خرط الرجل الشجر ، إذا انتزع الورق منه اجتذاباً . يصف خيوط المطر حين تضربها الريح فتتناثر بسلوك القلادة إذا بليت وانقطعت فتناثرت حباتها على الأرض .

(٥) محتبس : محجوب . ومنقبض : كدر غير صاف ، ومنبسط : ممدود . يريد أن الجو كان معمّا كدراً . والشمس يحجبها الغمام الكثيف ، والمطر ينساب بشدة ، والظل ممتد لا أثر فيه للشمس وضوئها . وفى هذا البيت كما ترى طباق بين محتبس ومنطلق ، وبين منقبض ومنبسط ومثل هذا النوع قليل فى شعر البارودى ، وهو لا يتعمده فى الغالب .

(٦) لذنا به : لجأنا إليه ، بأطرافه : أى بنواحى المربع . عاكفة عليه : مقبلة مقيمة به لنضرته . ويشير باختلاط النور بالظلماء إلى أنهم لجئوا إلى هذا المربع فى مطلع الفجر .

وصف طائر

وقال البارودى يصف طائراً قد وقف على غصن أيكة قلقاً ، فزعاً ، حذراً ، وكان البارودى قد أخذته سنة من النوم ، فأيقظته حركة الطائر القلق ، فوصف هذا المنظر ، وحاول أن يتعرف على نفسية هذا الطائر ، ويكشف عن سر قلقه . وهى قطعة تدل على شاعرية سامية ، وعلى قدرة فائقة فى التصوير ، وعلى الدقة فى تسجيل أدنى مظاهر الطبيعة ؛ وذلك من فرط الحساسية ، والشعور المرهف :

وَنَبْأَةٍ أَطْلَقَتْ عَيْنِيَّ مِنْ سِنَةٍ ... كانَتْ خُيالَةَ طَيْفٍ زَارَنى سَحَرَا(١)

فَقُمْتُ أَسْأَلُ عَيْنِى رَجْعَ ما سَمِعَتْ ... أُذْنى . فقالتْ : لَعَلِّى أُبْلِغُ الخَبَرَا(٢)

ثُمَّ اشْرَأَبَّتْ ، فَأَلْفَتْ طائراً حَذِراً ... على قَضِيبٍ يُدِيرُ السَّمْعَ والبَصَرَا(٣)

مُسْتَوْفِزاً يَتَنَزَّى فَوْقَ أَيْكَتِهِ ... تَنَزِّيَ القَلْبِ طَالَ العَهْدُ فادَّكَرَا(٤)

لا تَسْتَقِرُّ لَهُ ساقٌ عَلَى قَدَمٍ ... فَكُلَّما هَدَأَتْ أَنْفاسُهُ نفَرَا(٥)

يَهْفُو به الغُصْنُ أَحْياناً وَيَرْفَعُهُ ... دَحْوَ الصَّوالِجِ فِى الدِّيمُومَةِ الأُكَرَا(٦)

---

(١) النبأة : الصوت الخفى . والسنة : النعاس . والخيالة : المصيدة . والطيف : الخيال الطائف فى المنام . والسحر : الوقت قبيل الفجر .

(٢) رجع : مصدر رجعت إليه الشىء (من باب قطع) أى رددته . يقول : فانتبهت فسألت عينى أن ترد إلى ما سمعته أذنى أى تدلنى على مصدر ذلك الصوت الذى نبهنى ، فأجابتنى بأنها ترجو أن تبلغ خبره وتنقل إلى حقيقة أمره . والمعنى : أنه لما سمع ذلك الصوت الذى نبهه وأيقظه جعل يبحث بعينيه عن مبعثه .

(٣) اشرأبت : ارتفعت . وألفت : وجدت . قضيب : غصن .

(٤) مستوفزاً : غير مطمئن ، قد تهيأ للوثوب والطيران . ويتنزى : يثب . والأيكة : الشجرة ذات الأغصان الكثيرة الملتفة يقول : إن هذا الطائر غير مطمئن ولا مستقر ، ولكنه يتنقل ويثب فوق أيكته وثوب قلب الإنسان طال عليه العهد بفراق أحبابه ، فتذكرهم فخفق واضطرب .

(٥) هذا الطائر قلق لا يستقر فى مكانه ، ولا تكاد تهدأ أنفاسه حتى يفزع وينفر إلى مكان آخر .

(٦) يهفو : يميل ويهتز . والدحو : مصدر دحا اللاعب الكرة دفعها ورماها بيده . والصولجان : عصا معوجة يعطف طرفها وتضرب بها الكرة ، وجمعه صوالجة . والديمومة : الأرض المستوية . والأكر : جمع أكرة ، وهى الكرة التى يلعب بها .

والمعنى : أن الغصن يميل بهذا الطائر . ويهتز بين انخفاض وارتفاع ، كرمى الكرات بالصوالجة فى الأرض المستوية ، ودحو الصوالج من إضافة المصدر إلى فاعله . والأكر مفعوله .

ما بالُهُ وَهْوَ فى أمْنٍ وعافيةٍ لا يَبْعَثُ الطَّرْفَ إلا خائفاً حَذِرَا؟
إذا علا باتَ فى خَضْراءَ ناعِمَةٍ وإنْ هَوَى وَرَدَ الغُدْرانَ أو نَقَرَا(١)

وصف الحصان والسيف

كان البارودى — كما نعلم — فارساً شجاعاً خاض غمرات الحرب مرات ، وكان محباً للخيل الجياد شأن الفرسان الشجعان ، فلا بدع إذا رأيناه يصف الفرس ، ويصف السيف ، وهما حليفاه فى المعركة ، فيقول من قصيدة طويلة يصف فيها الفرس والسيف :

فَقَدْ أسِيرُ أمامَ القَوْمِ ضَاحِيَةً وأَلجُؤُ بالباتِرَاتِ البِيضِ مُشْتَعِلُ(٢)
بِكُلِّ أشْقَرَ قدْ زَانَتْ قَوَائِمَهُ حُجُولُهُ غَيْرَ مُثْنَى زَانَهَا العَطَلُ(٣)
كأنه خاضَ نَهْرَ الصُّبْحِ فانتَبَذَتْ مُمْنَاهُ وانْبَثَّ فى أعْطَافِهِ الطَّفَلُ(٤)
زُرْقٌ حَوَافِرُهُ سُودٌ نَوَاظِرُهُ خُضْرٌ جَحَافِلُهُ فى خَلْقِهِ مَيَلُ(٥)
كَأنَّ فى حلقِهِ ناقوسَ رَاهِبَةٍ بانَتْ تُحَرِّكُهُ أو رَاعِدٌ زَجِلُ(٦)

---

(١) هوى : سقط ونزل على الأرض . والغدران : جمع غدير وهو جدول الماء ، وفى الأصل الغدير هو القطعة من الماء غادرها السيل . ونقر الطائر الحبة . التقطها بمنقاره .

(٢) ضاحية : علانية . والجو ما بين السماء والأرض والجمع جواء بكسر الجيم . والباترات : السيوف القاطعة .

(٣) الأشقر : من الحيوان ما كان لونه أحمر . وقوائمه : يداه ورجلاه . وحجوله : من التحجيل وهو بياض فى قوائم الفرس كلها أو بعضها . العطل : ليست بها حلية التحجيل فهو محجل بثلاث فقط .

(٤) انتبذت : بعدت وتنحت ناحية . وأعطافه : جمع عطف (بكسر العين) ، وهو الجانب. والطفل : له معان كثيرة منها احمرار الشفق عند الغروب يريد أن الحمرة قد انتشرت على جوانبه .

(٥) نواظره : عيناه جمع ناظرة . والجحافل : جمع جحفلة وهى من الفرس والحمار ونحوهما بمثابة الشفة من الإنسان . ميل : انحراف ويريد به انحراف العنق .

(٦) زجل : ذو جلبة وصوت مرتفع وهو خاص بالتطريب

يَمُرُّ بالوَحْشِ صَرْعَى فى مَكامِنِها ... فَما تَبِينُ لَهُ شَدًّا فتَنْخَذِلُ[١]

يَرَى الإشارةَ مِنْ وحْيٍ فَيَفْهَمُها ... ويَسْمَعُ الزَّجْرَ مِنْ بُعدٍ فَيَمْتَثِلُ[٢]

لا يَمْلِكُ النَّظْرَةَ العَجْلاءَ صاحِبُها ... حَتَّى تَمُرَّ بِعَطْفَيْهِ فَتُحْتَبَلُ[٣]

إنْ مَرَّ بالْقَوْمِ حَلُّوا عَقْدَ حَبْوَتِهم ... واسْتَشْرَفَتْ نَحْوَهُ الألْبابُ والمُقَلُ[٤]

تَقودُهُ بِنْتُ خَمْسٍ فَهْوَ يَتْبَعُها ... ويَسْتَشِيطُ إذا هَاهَا بِهِ الرَّجُلُ[٥]

أمْضَى به الهَوْلَ مِقْداماً وَيصْحَبُنى ... مَاضِى الْغِرَارِ إذاما اسْتَفْحَلَ الْوَهَلُ[٦]

يَمُرُّ بالْهَامِ مَرَّ البَرْقِ فى عَجَلٍ ... وَقْتَ الضِّرابِ وَلَمْ يَعْلَقْ بِهِ بَلَلُ[٧]

تَرَى الرِّجالَ وُقوفاً بَعْدَ فَتْكَتِهِ ... بِهِمْ يُظَنُّونَ أحْياءً وقَدْ قُتِلُوا[٨]

كَأَنَّهُ شُعْلَةٌ فى الكَفِّ قَائِمَةٌ ... تَهْفُو بها الرِّيحُ أحْياناً وَتَعْتَدِلُ[٩]

---

(١) صرعى : ملقاة على الأرض ويريد هنا أنها مطمئنة فى مكامنها لا تخاف الأعداء . وتبين : مضارع بان بمعنى ظهر واتضح وقد استعمله الشاعر هنا بمعنى تتبين وهو مضارع تبين الشىء : أى شهده واضحاً جلياً . وله : بمعنى منه ، وشدا : عدوا . فتنخذل : حتى تنخذل وتهزم وتفر . يريد أن يقول : إن الوحوش الآمنة فى مكانها لا تلمح عدوه حتى تفر .

(٢) يمتثل : يطيع ، ويرى الإشارة من وحى : يرى الإشارة الخفية أى يفهم بالإيحاء .

(٣) العجلاء : يريد العجل أى السريعة ولم ترد العجلاء فى معاجم اللغة . صاحبها : أى صاحب النظرة . بعطفيه : بجنبيه . فتحتبل : تقع فى الحبالة وهى المصيدة . ومعنى البيت : أن من يلق عليه نظرة عاجلة سريعة لا يكاد يرى وجهه لسرعته وإنما تقع نظرته على جانبى الفرس .

(٤) الحبوة : أن يجلس الإنسان القرفصاء ويجمع بين ظهره ورجليه بعمامة أو ثوب أو يشد على رجليه بيديه . استشرفت : تطلعت ، والمقل : جمع مقلة وهى حدقة العين . وحل عقد حبوته : كناية عن الاهتمام .

(٥) بنت خمس : أى خمس سنوات . يستشيط : يحتدم ويخف ويتحرق شوقاً إلى العدو . وهاها به : دعاء وزجره .

(٦) الغرار : حد الرمح والسيف . وماضى الغرار : السيف القاطع . واستفحل : اشتد والوهل : الفزع .

(٧) الهام : جمع هامة وهى الرأس . ولم يعلق به بلل : كناية عن سرعة قطعه .

(٨) البيت كله كناية عن مضاء السيف وشدة سرعته فى الفتك .

(٩) تهفو : تميل .

لَوْلاَ الدِّماء التى يُسْقَى بها نَهَلاً لَكادَ مِنْ شِدَّةِ اللَّأْلاء يَشْتَعِلُ (١)
يَفُلُّ ما بَقِيَتْ فى الكَفِّ قَبْضَتُهُ كُلَّ الحديد وَلَمْ يَنْأَرْ به فَلَلُ (٢)

وصف الحرب

أعلنت روسيا فى سنة ١٨٧٧ الحرب على تركيا ، وتبعتها رومانيا ثم الصرب والجبل الأسود ، وبلغاريا ، وقد أرسلت مصر جيشاً لمعاونة الخليفة العثمانى فى هذه الحرب ، وكان البارودى من قواد هذا الجيش ، ولكن الحرب انتهت بهزيمة تركيا ، وعقد معاهدة « سان استيفانو » فى مارس ١٨٧٨ ، وبهذه المعاهدة نالت رومانيا والصرب والجبل الأسود استقلالها ، ومنحت بلغاريا استقلالا إدارياً ، وأخذت روسيا باطوم وأرزن وقارص .

وقد وصف البارودى بعض المعارك التى خاضها فى تلك الحرب ، ووصف ساحة القتال ، وأهل البلاد التى وقعت فيها المعارك وما يقوله فى وصف تلك الحرب من قصيدة طويلة :

وأَصْبَحْتُ فى أَرْضٍ يحارُ بها القَطا وتَرْهَبُهَا الجِنَّانُ وهْىَ سَوارِحُ (٣)
بَعِيدَةُ أَقطارِ الدَّيامِيمِ ، لَوْ غَدا سُلَيْكٌ بها شَأْواً قَضَى وهو رازِحُ (٤)
تَصِيحُ بها الأَصْداء فى غَسَقِ الدُّجَىٰ صِياحُ الثَّكالَىٰ هَيَّجَتْها النَّوائِحُ (٥)
تَرَدَّتْ بِسَمُّورِ الغَمامِ جِبالُها وَمَاجَتْ بِتَيَّارِ السُّيُولِ البَطائِحُ (٦)

---

(١) النهل : أول الشرب . واللألاء : اللمعان .

(٢) يفل : يثلم ويكسر . وقبضته : قدر ما تقبض عليه منه . وفلل : انثلام وتكسر .

(٣) القطا : نوع من الحمام يضرب المثل بهدايته . والجنان : جمع جان . وسوارح : جمع سارحة من سرحت الإبل رعت بنفسها ، ويراد بالسوارح هنا السائرة المطلقة .

(٤) أقطار : جمع قطر وهو الناحية . والدياميم : جمع ديمومة وهى الأرض القفر أو الصحراء الواسعة . وعدا : جرى . وسليك : هو سليك بن سلكه لص فتاك عداء يضرب به المثل فى العدو . وجرى شأواً : جرى شوطاً والشأو ، فى الأصل الغاية والأمد . وقضى : مات . ورازح : سقط إعياء .

(٥) الأصداء : جمع الصدى : وهو طائر يصر بالليل ، وهو أيضاً رجع الصوت فى الخلاء . الغسق : ظلمة أول الليل . والثكالى : جمع ثكلى وهى المرأة التى فقدت ولدها .

(٦) تردت : لبست الرداء . والسمور : حيوان برى يتخذ من جلده فراء ثمينة وهو يشبه النمس ويكثر ببلاد الروس . البطائح : جمع بطيحة وهى مسيل الماء فيه دقاق الحصى .

فأنجادُها للكاسِرات مَعاقِلٌ وأغْوارُها لِلعاسِلاتِ مَسارِحُ (١)

مَهالِكُ يَنْسَى المرءُ فيها خَليلَهُ وَيَندُرُ عن سَوْمِ العُلا مَنْ يُنافِحُ (٢)

فلا جَوَّ إلاّ سَمْهَرِيٌّ وقاضِبٌ ولا أرضَ إلاّ شَمَّرِيٌّ وسابِحُ (٣)

ترانا بِها كالأُسْدِ تَرْصُدُ غارةً يَطيرُ بِها فَتْقٌ من الصُّبْحِ لامِحُ (٤)

مدافِعُنا نُصْبَ العِدَا ومُشاتُنا قيامٌ تليها الصّافِناتُ القوارِحُ (٥)

ثلاثةُ أصنافٍ تقيهنَّ ساقةٌ حِيَالَ العِدا إن صَاحَ بالشَّرِّ صائحُ (٦)

فلستَ تَرَى إلاّ كُماةً بواسِلاً وجُرْداً تَخُوضُ الموتَ وهْيَ ضَوابِحُ (٧)

نُغيرُ على الأبْطالِ والصُّبْحُ باسِمٌ ونأوِي إلى الأدْغالِ والليلُ جانِحُ (٨)

بَكَى صاحِبِي لمّا رَأى الحربَ أقْبَلَتْ بِأبْنائِها ، واليَوْمُ أغْبرُ كالِحُ (٩)

---

(١) الأنجاد : جمع نجد وهو ما ارتفع من الأرض . والكاسرات : الطيور تكسر أجنحتها أى تضمها للوقوع . والأغوار : جمع غور ، وهو المنخفض من الأرض . والعاسلات : الذئاب من عسل الذئب اضطرب فى عدوه وهز رأسه .

(٢) يندر : هنا بمعنى يسقط أو يهلك . سوم العلا : المراد به طلب الرفعة من سام البائع السلعة إذا عرضها للبيع وذكر ثمنها ، وسامها المشترى طلب بيعها . ينافح : يكافح .

(٣) السمهرى : الرمح الصلب . والقاضب : السيف القاطع . والشمرى : الشجاع المجرب . والسابح : الفرس السريع العدو .

(٤) نرصد : نرقب : وفتق الصبح : انشقاق الفجر . ولامح : لامع .

(٥) نصب العدا : أمامهم . والعدا : اسم جمع لعدو . والصافنات : جمع الصافن وهو من الخيل ما يقف على ثلاثة قوائم ، وقد أقام الرابعة على طرف الحافر وهو من صفات الجودة فى الخيل . والقوارح : جمع قارح وهو من الخيل ما بلغ الخامسة من العمر .

(٦) ساقة الجيش : مؤخره . صياح : من صال على خصمه إذا سطا عليه و بطش به .

(٧) الكماة : جمع كمى وهو الشجاع والفارس فى كامل سلاحه . وبواسل : جمع غير قياسى لباسل وهو البطل الشجاع . والجرد : جمع أجرد وهو الفرس السباق وأصله قصير الشعر وهو من صفات الجودة فى الخيل . وضوابح : جمع ضابح ، وضبح الخيل صوت أنفاسها عند العدو .

(٨) الأدغال : جمع دغل (بفتحتين) وهو الشجر الكثير الملتف . وجانح : مقبل .

(٩) كالح : عبوس هائل .

وَلَمْ يَكُ مُبْكَاهُ لِخَوْفٍ وإنّما ... تَوَهَّمَ أنّى فى الْكَرِيهَةِ طَائِحُ (١)

فَقَالَ اتَّئِدْ قبلَ الصِّيَالِ ولاَ تَكُنْ ... لِنَفْسِكَ حَرْبًا إنَّنِى لَكَ نَاصِحُ (٢)

أَلَمْ تَرَ مَعْقُودَ الدُّخانِ ، كأنّما ... عَلَى عَاتِقِ الجَوْزَاءِ مِنْهُ سَرَائِحُ (٣)

وقَدْ نَشَأَتْ لِلحَرْبِ مُزْنَةُ قَسْطَلٍ ... لَهَا مُسْتَهِلٌّ بالْمَنِيَّةِ رَاشِحُ (٤)

فَلاَ رَأْىَ إلاّ أنْ تَكُونَ بِنَجْوَةٍ ... فإنَّكَ مَقْصُودُ المَكَانَةِ واضِحُ (٥)

فَقُلْتُ تَعَلَّمْ إنّما هِىَ خُطَّةٌ ... يَطُولُ بها مَجْدٌ ، وتُخْشَى فَضَائِحُ (٦)

فَمَا كُلُّ ما تَرْجُو مِنَ الأَمْرِ ناجِعٌ ... وَلَا كُلُّ ما تَخْشَى مِنَ الخَطْبِ فادِحُ (٧)

فَقَدْ يَهْلِكُ الرِّعْدِيدُ فى عُقْرِ دَارِه ... وَيَنْجُو مِنَ الحَتْفِ الكَمِىُّ المُشَايِحُ (٨)

وَكُلُّ امرىءٍ يَوْمًا مُلاقٍ حِمَامَهُ ... وإنْ عَارَ فى أرْسَانِهِ وهْوَ جامِحُ (٩)

---

(١) توهم : ظن . والكريهة : الحرب . وطائح : هالك .

(٢) اتئد : تأن وتمهل : والصيال : السطو والبطش .

(٣) العاتق : ما بين المنكب والعنق . والجوزاء كوكب . والسرائح : جمع سريحة وهى القطعة من الثوب والمراد قطع الدخان ، والمعنى : أن دخان الحرب معقود فى الجو مرتفع ، كأنما الجوزاء قد حملت على عاتقها قطعاً منه .

(٤) المزنة : السحابة . والقسطل : الغبار . واستهل المطر : اشتد انصبابه فالمطر مستهل أى شديد الانصباب . ورشح الماء : خرج من مسام إناء أو غيره . يريد أن يقول : بأنه قد نشأ فى سماء ميدان الحرب من غبارها ما يشبه السحابة التى تصب الموت والعناء .

(٥) النجوة : ما ارتفع من الأرض ، والمراد المكان البعيد عن الخطر . مقصود المكانة : معروف مكانك ومنزلتك من الجند لعلو قدرك .

(٦) تعلم : اعلم .

(٧) ناجع : نافع ذو أثر ظاهر . والخطب : النازلة ، وفادح : صعب وشاق .

(٨) الرعديد : الجبان . وعقر داره : وسطها : والحتف : الموت . والكمى : الشجاع أو الفارس فى كامل عدته . والمشايح : المقاتل .

(٩) الحمام : الموت . وعار الفرس يعير : ذهب كأنه منفلت من صاحبه . والأرسان : جمع رسن وهو الحبل . وجامح : مستعص ، ومعنى البيت : أن الإنسان يلاقى حتما ما قدر عليه من الموت ، وإن فر من أسبابه فرار الفرس الجموح .

وصف جيش العدو

مر بنا أن البارودى اشترك فى الحملة التى أرسلتها مصر لمساعدة تركيا فى حربها مع روسيا سنة ١٨٧٧ ، وكان من حظه أن نزل بمقاطعة أكرانيا من روسيا فى « سرنسوف » على أحد روافد نهر دنيبر . وقد اشترك مع الروس فى الحرب أهل رومانيا وبلغاريا والصرب والجبل الأسود . وهو هنا يصف هذه البلاد ، ويصف رجال تلك الجيوش التى يحاربها فقال من قصيدة طويلة :

بِلادٌ بِهـا ما بالجحيم وإنمـــا ... مَكانَ اللظَى ثَلْجٌ بِهـا وجَليدُ(١)

تَجَمَّعَتِ البُلْغَارُ والرُّومُ بينهـا ... وزَاحَمَهـا التَّاتارُ ، فهى حُشُودُ(٢)

إذا رطنوا بَعْضاً سمعت لِصَوْتِهِمْ ... هَديداً تَكادُ الأرْضُ منه تَميدُ(٣)

قِباحُ النَّواصِى والوُجُوهِ كأنَّهُمْ ... لِغَيْرِ أبِى هذَا الأنَامِ جُنُودُ(٤)

سَوَاسِيَةٌ ، ليسوا بِنَسْلِ قَبِيلَةٍ ... فتَعْرِفَ آباءً لَهُمْ وجُـدودُ(٥)

لَهُمْ صُوَرٌ لَيْسَتْ وُجُوهاً وإنمـا ... تُنَاطُ إليهـا أعْيُنٌ وخُدُودُ(٦)

والمعنى مأخوذ من قول طرفة بن العبد :

لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى ... لكالطـول المرخى وثنياه باليد

والطول : الحبل .

(١) الجحيم : النار الشديدة التأجج . وكل نار عظيمة فى حفرة . واللظى : النار أو لهبها .

(٢) حشود : جماعات .

(٣) الرطانة : الكلام باللغة الأعجمية ، وراطنه كلمه بها . والكلام الفصيح راطن بعضهم بعضاً . وهديداً : دوياً أو صوتاً غليظاً كهدير البعير . تميد تتحرك .

(٤) النواصى : جمع ناصية وهى قصاص الشعر حيث ينتهى منبته من مقدم الرأس ، والمراد هنا الجباه . والأنام : الناس ، وأبو الأنام : آدم عليه السلام . يقول : إنهم ليسوا من أبناء آدم لقبحهم ودمامتهم .

(٥) سواسية : جمع سواء (على غير قياس) والمعنى متساوون فى القبح . يرميهم بالقبح ، وبأنهم أخلاط من قبائل وأجناس شتى .

(٦) تناط : تعلق . يقول : إن وجوههم لا تشبه وجوه الناس . وإنما هى صور غريبة علقت بها عيونهم وخدودهم .

يَخورُونَ حَوْلِي كالمُجُول و بعضُهم ... يُهَجِّنُ لَحْنَ القَوْلِ حِينَ يُجيدُ[١]
أدورُ بِعَيْنِي لاَ أرى بَيْنَهمْ فَتًى ... يَرُودُ مَعِي فى القَوْلِ حَيْثُ أرُودُ[٢]
فَلاَ أنَا مِنْهُمْ مُسْتَفِيدٌ غَرِيبةً ... وَلا أنَا فيهم ما أقمتُ مُفيدُ
فَمَنْ لى بأيَّامٍ مَضَتْ قَبْلَ هَذِهِ ... بِمصرَ؟ وعَيْشِي لَوْ يدومُ حَميدُ[٣]

وصف الهرمين

رأينا أن البارودى قد برع فى وصف الطبيعة بمناظرها المختلفة ، ولكنه لأول مرة فى تاريخ الشعر المصرى نجد شاعراً يقف وقفة طويلة أمام الهرمين ويفرد لوصفهما قصيدة ، ولم يكن الشعراء قبله يهتمون بهما ، وإنما يذكرونهما فى بيت أو شطر بيت على سبيل العظة . والآثار المصرية جزء من الطبيعة المصرية ، ووصفها دليل الإعجاب والحب والوطنية . وقد مهد البارودى السبيل لشوقى وضرب له مثلا . بل إن البارودى كان أقوى إحساساً بمصر وطبيعتها من كثير من الشعراء الذين أتوا بعده ، والذين لا نكاد نعثر على بيت واحد فى شعرهم ينبىء عن حب لمصر وآثارها وطبيعتها .

سَلِ الجيزَةَ الفيحاء عَنْ هَرَمَىْ مِصْرِ ... لَعَلَّكَ تَدْرِى غَيْبَ مَالَمْ تَكُنْ تَدْرِى[٤]
بِنَاءانِ رَدَّا صَوْلَةَ الدَّهْرِ عَنْهُما ... وَمِنْ عَجَبٍ أنْ يَغْلِبَا صَوْلَةَ الدَّهْرِ[٥]
أقَامَا على رَغْمِ الخُطُوبِ لِيَشْهَدَا ... لِبَانِيهِما بَيْنَ البَرِيَّةِ بالفَخْرِ[٦]
فَكَمْ أُمَمٍ فى الدَّهْرِ بادَتْ وأعْصُرٍ ... خَلَتْ ، وهُمَا أعْجُوبَةُ العَيْنِ والفِكْرِ

---

(١) يخورون : يصيحون وهو من خار الثور . يهجن : يقبح . ولحن القول : فحواه ومعناه ويريد بلحن القول هنا اللغة العربية يقول : إن رطانتهم تشبه خوار البقر ، وإن بعضهم يحاول إجادة النطق بالعربية ، فيجعلها قبيحة معيبة تشوهها هجنة الأعاجم .

(٢) يرود : يجيء ويذهب ويتردد . يعنى أنه ليس فيهم من يستطيع محاورته باللسان العربى .

(٣) حميد : محمود غير مذموم .

(٤) الفيحاء : الواسعة . وهرما مصر : هما الأكبر وقد بناه (خوفو) والثانى وقد بناه (خفرع) وهما من ملوك الأسرة الرابعة (من سنة ٢٩٠٠ — إلى سنة ٢٧٥٠ ق م) .

(٥) صولة الدهر : استطالته وسطوته وبطشه .

(٦) الخطوب : نوازل الدهر . والبرية : الخلق (بفتح الخاء) .

تَلُوحُ لآثار العُقُولِ عَلَيْهِما ... أَسَاطِيرُ لا تَنْفَكُّ تُتْلَى إلى الْحَشْرِ (١)

رُمُوزٌ لو اسْتَطْلَعْتَ مَكْنُونَ سِرِّها ... لأَبْصَرْتَ مَجْمُوعَ الخلائقِ فى سَطْرِ (٢)

فما مِنْ بِنَاءٍ كان ، أو هو كائنٌ ... يُدانِيهما عِنْدَ التَّأَمُّلِ والخُبْرِ

يُقَصِّرُ حُسْناً عَنْهُما « صَرْحُ بَابِلٍ » ... ويَعْتَرِفُ «الإيوانُ» بالعَجْزِ والبَهْرِ (٣)

فَلَوْ أَنَّ «هَارُوتَ» انْتَحَى مَرْصَدَيْهِما ... لأَلْقَى مَقَالِيدَ الْكَهَانَةِ والسِّحْرِ (٤)

كأنهما ثَدْيَانِ فَاضَا بِدِرَّةٍ
مِنَ النِّيلِ تُرْوِى غُلَّةَ الأَرْضِ إِذْ تَجْرِى (٥)

وبَيْنَهُمَا « بَلْهِيبُ » فى زِىِّ رَابِضٍ ... أَكَبَّ عَلَى الكَفَّيْنِ مِنْهُ إلى الصَّدْرِ (٦)

يُقَلِّبُ نَحْوَ الشَّرْقِ نَظْرَةَ وَامِقٍ ... كأَنَّ لَهُ شَوْقاً إلى مطلع الفَجْرِ (٧)

مَصَانِعُ فيها لِلْعُلُومِ غَوامِضٌ ... تَدُلُّ عَلَى أَنَّ ابن آدَمَ ذُو قَدْرِ (٨)

---

(١) تلوح : تبدو وتظهر ، ويريد بظهور آثار العقول على الهرمين ما يتجلى للناظر إليهما من عبقرية الذين أشرفوا عليهما ورفعوا قواعدهما . والأساطير : جمع أسطار (بفتح فسكون) ، والأسطار : جمع سطر وهو الصف من الكتابة .

(٢) يريد أنك لو فهمت هذه الإشارات والرموز واطلعت على سر العظمة التى تخفيها لرأيت بعين خيالك صور الأمم التى نزلت بهذا الوادى من مصريين قدماء ورعاة وفرس وروم وعرب وترك وفرنسيين وغيرهم ، وأنهم أفد زالوا ، وبقيت هذه الآثار قوية شامخة تحدثنا بأخبارهم جميعاً .

(٣) الصرح : القصر العظيم المنفرد العالى . وبابل مدينة من أعظم مدن العالم القديم على الجانب الأيسر من الفرات ولا تزال بعض آثارها موجودة حتى اليوم بالقرب من الحلة ، وقد بناها « الكلدان » ، وصرحها الذى يشير إليه الشاعر كان لبختنصر ، وكان يعد من عجائب الدنيا . والإيوان : يريد به إيوان كسرى أنوشروان بالمدائن . والبهر : مصدر بهره أى غلبه وفضله .

(٤) هاروت : اسم ساحر أو ملك (بفتح الميم واللام) كان يعلم الناس السحر وقد ورد ذكره فى القرآن (آية ١٠٢ سورة البقرة) . ومرصداها : قمتاها (كأنهما يرصدان النجوم لارتفاعهما) والمقاليد : جمع مقلد أو مقلاد وهو المفتاح .

(٥) غلة الأرض : شدة العطش وحرارته .

(٦) بلهيب : أبو الهول .

(٨) وامق : محب .

(٧) المصانع : المبانى من القصور والحصون ونحوها . ذو قدر : ذو منزلة عالية .

رَسَا أَصْلُها ، وامْتَدَّ فى الجوِّ فرعُها ... فَأَصْبَحَ وَكْراً للسَّماكَيْنِ والنَّسْرِ (١)

فَقُمْ نَغْتَرِفْ خَمْرَ النُّهَى من دِنانِها ... ونَجْنِي بأيْدِى الْجِدِّ رَيْحانَةَ العُمْرِ (٢)

فَثَمَّ عُلومٌ لَمْ تُفَتَّقْ كِمامُها ... وثَمَّ رُمُوزٌ وَحْيُها غامِضُ السِّرِّ (٣)

أقَمْتُ بها شَهْراً فأَدْرَكْتُ كُلَّ ما ... تَمَنَّيْتُهُ مِنْ نِعْمَةِ الدَّهْرِ فى شَهْرِ (٤)

نَرُوحُ ونَغْدو كُلَّ يَوْمٍ لِنَجْتَنِي ... أزاهيرَ عِلْمٍ لا تَجِفُّ مَعَ الزَّهْرِ

إذا ما فَتَحْنا قُفْلَ رَمْزٍ بَدَتْ لَنا ... مَعارِيضُ لَمْ تُفْتَحْ بِزِيجٍ ولا جَبْرِ (٥)

فَكَمْ نُكَتٍ كالسِّحْرِ فى حَرَكاتِهِ ... تُرِيكَ مَدَبَّ الرُّوحِ فى مُهْجَةِ الذَّرِّ (٦)

سَكِرْنا بِما أَهْدَتْ لَنا مِنْ لُبابِها ... فَيا لَكَ مِنْ سُكْرٍ أُبِيحَ بِلا خَمْرِ (٧)

وما سَاءَنِي إلاَّ صَنِيعُ مَعاشِرٍ ... أَلَحُّوا عَلَيْها بالخِيانَةِ والغَدْرِ (٨)

---

(١) السماكان : الأعزل والرامح وهما نجمان نيران . والنسر : علم على كوكبين يقال لأحدهما : النسر الطائر ، والآخر النسر الواقع ، وفى التعبير بكلمة (وكر) مناسبة لطيفة للفظ « النسر » .

(٢) النهى : العقل ، أو هو جمع نهية (بضم النون) وهى العقل . والدنان : جمع دن (بفتح الدال) وهو إناء عظيم واسع الفم توضع فيه الخمر .

(٣) ثم (بثاء مفتوحة وميم مشددة) : هناك وهو للعبيد بمنزلة هنا للقريب : تفتق : تشق . وكام : جمع كم « بكسر الكاف » وهو فى الأصل وعاء الطلع وغطاء الزهر . وحيها : الكتابة . يشير إلى أن آثار الأقدمين لم تدرس بعد الدراسة الكافية ، وأننا لم نصل إلى كل علوم الأقدمين .

(٤) بها : أى بهذه المصانع وبين هذه الآثار .

(٥) المعاريض : جمع معراض وهو السهم والمراد بالمعاريض هنا : خفايا التاريخ ودقائق العلوم والفنون . والزيج (بكسر الزاى) : جدول يستدل به على حركة النجوم لمعرفة مواقعها . والجبر : العلم الرياضى المعروف .

(٦) النكت : جمع نكتة وهى الأثر القليل يشبه النقطة والمراد هنا النقش الدقيق المحكم . حركاته : الضمير يعود على السحر والمراد أعاجيبه ، ومدب الروح . دبيبها وحركتها . المهجة : الدم أو دم القلب خاصة ، والمراد بها هنا الجسم . والذر : صغار النمل الواحدة ذرة ، وهو يشير بهذا إلى صغر النقوش وإحكامها وشدة تأثيرها فى النفوس .

(٧) لباب الشىء : خالصه ، والمراد بلباب المصانع والآثار : أسرار صنعها ودلالتها على أحوال أهلها .

(٨) يشير إلى لصوص المقابر الذين سطوا عليها فى مختلف الأزمان وسلبوا تحفها وذخائرها وضيعوا جمالها ، كما يشير إلى الذين شوهوا هذه الآثار حسداً على من خلفوها .

أَبَادُوا بها شَمْلَ الْعُلُومِ وشَوَّهُوا ... مَحَاسِنَ كانتْ زِينةَ الْبَرِّ والْبَحْرِ
فَكَمْ سَمَلُوا عَيْناً بها تُبْصِرُ العُلَا ... وشَلُّوا يَداً كانتْ بهارايةُ النَّصْرِ (١)
تَمَنَّوْا لُقَاطَ الدُّرِّ جَهْلاً ومَا دَرَوْا ... بِأَنَّ حصَاها لا يَقُومُ بالدُّرِّ (٢)
وفَلُّوا لِجَمْعِ التِّبْرِ صُمَّ صُخُورِها ... وأَيْسَرُ مَا فَلُّوهُ أَغْلَى مِنَ التِّبْرِ (٣)
ولَكِنَّهُمْ خَابُوا فَلَمْ يَصِلُوا إلى ... مُنَاهُمْ وَلَا أَبْقَوْا عَلَيْها من الْخَتْرِ (٤)
فَتَبًّا لَهُمْ مِنْ مَعْشَرٍ نَزَعَتْ بِهِمْ ... إلى الْغَيِّ أَخْلَاقٌ نَبَتْنَ عَلَى غِمْرِ (٥)
أَلَا قَبَّحَ اللهُ الْجَهَالَةَ إنَّها ... عَدُوَّةُ مَا شَادَتْهُ فِينَا يَدُ الْفِكْرِ
فَلَوْ رَدَّتِ الأَيَّامُ مُهْجَةَ «هُرْمُسٍ» ... لَأَعْوَلَ مِنْ حُزْنٍ على نُوَبِ الدَّهْرِ (٦)
فيانَسَمَاتِ الْفَجْرِ أَدِّى تَحِيَّتِى ... إلى ذَلِكَ الْبُرْجِ الْمُطِلِّ على النَّهْرِ (٧)

---

(١) سمل عينه : فقأها بحديدة محماة أو بغيرها . وشلت اليد (من باب تعب) إذا فسدت عروقها وبطلت حركتها . والمعروف فى المعاجم أن هذا الفعل لازم ويتعدى بالهمزة فيقال : أشل الله يد فلان ، والشاعر هنا استعمله متعدياً بنفسه ولعله ضمنه معنى قطع وبتر وهو المعنى المراد هنا .

(٢) لقاط : (بكسر اللام أخذ الشىء من الأرض) وبضم اللام : المال الملتقط ، والدر : ما اعتاد القدامى دفنه مع جثث عظمائهم من التحف والنفائس .

(٣) فلوا : كسروا . والتبر : الذهب قبل أن يصاغ ، والمراد هنا الذهب مطلقاً . وصم : جمع أصم وصماء وهو الحجر الصلب .

(٤) الختر : الغدر والخيانة .

(٥) تبًّا : خساراً وهلاكا . نزعت : مالت وذهبت . والغمر : الحقد .

(٦) هرمس : فيما يزعم الرواة الأقدمون أول من بنى الهياكل وتكلم فى الأشياء العلوية ، ونظر فى الطب والحكمة . وأعول : بكى . وعلى (هنا) بمعنى من .

(٧) البرج : الحصن ويريد بالبرج الهرم .

وصف مجلس أنس

كان البارودى فى مبدأ حياته ممن يؤثرون الجد وارتكاب الصعاب فى سبيل المجد ، ولكنه حين اجتمع لديه الشباب والجاه والمال لم يجد بأساً فى أن يغشى أماكن اللذات ومجالس الأنس والطرب شأن أبناء الطبقة الغنية فى عهده ، وقد أثر فى شعره من وصف هذه المجالس وتأثير الخمر فى نفسه ونفس الندماء ، بيد أنه ما لبث أن أقلع عن كل ذلك حين أدرك أن هذه اللذات مخلقة للشباب ، مميتة للحيوية وأنها تورث الأسقام والعلل ، كما وضحنا ذلك فى الكلام عن أخلاقه . ومن أوصافه لمجالس الأنس قوله :

وَقَدْ شَاقَنِي والصُّبْحُ فِي خِدْرِ أُمِّهِ ... حَنِينُ حَمَاتٍ تَجَاوَبْنَ فِي وَكْرِ (١)

هَتَفْنَ فَأَطْرَبْنَ الْقُلُوبَ ، كَأَنَّمَا ... تَعَلَّمْنَ أَلْحَانَ الصَّبَابَةِ مِنْ شِعْرِي (٢)

وقَامَ على الْجدْرانِ أَعْرَفُ لَمْ يَزَلْ ... يُبَدِّدُ أَحْلَامَ النِّيامِ وَلا يَدْرِي (٣)

تَخَايَلَ فِي مَوْشِيَّةٍ عَبْقَرِيَّةٍ ... مُهَدَّلَةِ الأَرْدَانِ سَابِغَةِ الأُزْرِ (٤)

لَهُ كِبْرَةٌ تَبْدُو عَلَيْهِ كَأَنَّهُ ... مَلِيكٌ عَلَيْهِ التَّاجُ يَنْظُرُ عَنْ شَزْرِ (٥)

فَسَارِعْ إِلَى رَاعِي الصَّبُوحِ مَعَ النَّدَى ... لِتَجْنِيَ بِأَيْدِي اللَّهْوِ بَاكُورَةَ الْعُمْرِ (٦)

---

(١) شاقنى : هاج شوقى . الخدر : الستر . وفى خدر أمه يريد أنه فى أول ظهوره على التشبيه بالطفل . تجاوبن : جاوب بعضها بعضاً . والوكر : عش الطائر .

(٢) الصبابة : الشوق ، أورقته وحرارته ، أورقة الهوى .

(٣) أعرف : له عرف (بضم فسكون) ويريد بالأعرف الديك .

(٤) تخايل : مشى فى عجب وكبر . موشية : منقوشة (يريد ريشه المنقوش) ، عبقرية تامة الحسن نسبة إلى عبقر — وهو فيما تزعم العرب — موضع كثير الجن ينسبون إليه كل شىء تعجبوا من حسنه وكماله . مهدلة : مسترسلة مرخاة طويلة . الأردان : جمع ردن (بضم فسكون) وهو أصل الكم والمراد هنا الكم وسابغة واسعة طويلة تامة . والأزر : جمع إزار وهو الثوب والملحفة وكل ما ستر الجسم .

(٥) الكبرة : الكبر والتأنيث فيها للمبالغة . وشزر : يقال نظر إليه شزراً إذا كان بمؤخر عينه وهو نظر فيه إعراض وتكبر كنظر الغضبان .

(٦) الصبوح : شراب الصبح . وباكورة الفاكهة : أول ما يدرك منها وينضج

فَقَدْ نَسَمَتْ رِيحُ الشَّمالِ فَنَبَّهَتْ ... عُيونَ القَمارِى وَهْىَ فى سِنَةِ الْفَجْرِ (١)

ونَادى الْمُنَادى للصَّلاةِ بِسُحْرَةٍ ... فَأَحْيَا الْوَرَى مِنْ بَعْدِ طَىٍّ إلى نَشْرِ (٢)

فَبَادِرْ لَمِيقاتِ الصَّلاةِ وَمِلْ بِنَا ... إلى الْقَصْفِ مَا بَيْنَ الجزيرةِ والنَّهْرِ (٣)

إذا ما قَضَيْنَا وَاجِبَ الدِّينِ حَقَّهُ ... فَلَيْسَ عَلَيْنَا فى الخَلاعَةِ مِن وِزْرِ (٤)

أَلا رُبَّ يَوْمٍ كانَ تاريخَ صَبْوَةٍ ... مَضَى غَيْرَ إِثْرٍ فى الخَيالةِ أَوْ ذِكْرِ (٥)

عَصَيْتُ بِهِ سُلْطَانَ حِلْمِى وقَادَنى ... إلى اللَّهْوِ شَيْطَانُ الخَلاعَةِ والسُّكْرِ (٦)

لَدَى رَوْضَةٍ رَيَّا الغُصُونِ تَرَنَّحَتْ ... مَعَاطِفُها رَقْصاً على نَغَمَاتِ الْقُمْرِى (٧)

تَدُورُ عَلَيْنا بالْمُدَامَةِ بَيْنَها ... تَماثِيلُ ؛ إِلَّا أنها بَيْنَنَا تَجْرِى (٨)

تَرَى كُلَّ مَيْلاءَ الخِمَارِ من الصِّبَا ... هَضِيمَةَ مَجْرَى الْبَنْدِ ناهِدَةَ الصَّدْرِ (٩)

---

(١) القمارى بتشديد الياء : جمع قمرية : نوع من الحمام وخففت الياء هنا للضرورة الشعرية ، والقمرة فى الأصل البياض أو بياض به كدرة . والسنة : النعاس أو أول النوم .

(٢) السحرة : الوقت قبيل الفجر . الورى : الخلق والناس . والمراد بالطى النوم . وبالنشر اليقظة .

(٣) القصف : اللهو واللعب . ويريد بالجزيرة : روضة المقياس فى نهر النيل شرق الجيزة ، وغرب مصر القديمة .

(٤) الخلاعة : المجون وعدم المبالاة . والوزر : الإثم والذنب .

(٥) الصبوة : الميل إلى الجهل والفتوة . والإثر (بكسر الهمزة) : الأثر (بفتحتين) والمراد الصورة . والخيلة : الوهم والخيال . والذكر : التذكر أو ما يردده اللسان . يقول : إنه يحن إلى تلك الأيام التى كان فيها لاهياً ناعماً مرحاً يستمتع كما يستمتع الفتيان ، ولكن تلك الأيام قد ذهبت ولم يبق منها إلا صورة فى الخيلة ، أو ما أردده بلسانى .

(٦) الحلم : الأناة والعقل .

(٧) ريا الغصون : خضرة من الرى (بكسر الراء) وهو ضد العطش . معاطفها : جوانبها . والقمرى : نوع من الحمام .

(٨) المدامة : الخمر . وبينها : أى بين الغصون أو بين نواحى هذه الروضة . التماثيل : أراد بها الفتيات الحسان اللائى يسقينهم .

(٩) ميلاء : مائلة . والخمار : ثوب تغطى به المرأة رأسها . هضيمة : ضامرة . والبند : النطاق . ومجرى البند : الخاصرة والوسط .

إذا انفلتتْ فى حاجةٍ خِلْتَ جُؤذُراً ... أحَسَّ بِصَيَّادٍ فأتلعَ من ذُعْرِ (١)

لَوَى قدَّها سُكْرُ الخَلاعةِ والصِّبا ... فمالتْ بشطرٍ واستقامتْ على شطرِ (٢)

وعلَّمها وَحْيُ الدَّلالِ كهانةً ... فإنْ نطقتْ جاءتْ بشىءٍ من السِّحرِ (٣)

أحَسَّتْ بما فى نَفْسِها من مَلاحةٍ ... فتاهتْ علينا ، والملاحةُ قد تُغرى

وأعْجَبَها وجْدِى بها ، فتكبَّرتْ ... على دَلالاً ، وهى تَصْدُرُ عن أمْرى (٤)

فتاةٌ يَجُولُ السِّحْرُ فى لَحَظاتِها ... مَجالَ المَنايا فى المُهنَّدةِ البُتْرِ (٥)

إذا نَظَرَتْ أوْ أقبلَتْ أو تهلَّلتْ ... فوَيْلُ مَهاةِ الرَّمْلِ والغُصْنِ والبَدْرِ (٦)

فما زِلْنَ يُغْرِينَ الطُّلا بعُقُولنا ... إلى أنْ سَقَطْنا لليَدَيْنِ وللنَّحْرِ (٧)

فمِنْ وَاقِعٍ يهذِى ، وآخرَ ذاهلٍ ... له جَسَدٌ ما فيه رُوحٌ سِوى الخَمْرِ (٨)

صَريعٌ يَظُنُّ الشُّهْبَ منهُ قريبةً ... فيَسْدُو بِكَفَّيْهِ إلى مَطْلَعِ النَّسْرِ (٩)

---

(١) انفلتت : انصرفت . والجؤذر : ولد البقرة الوحشية تشبه به المرأة الحسناء فى الرشاقة وجمال العيون وسعتها . وأتلع الظبى ونحوه : مد عنقه وارتفع به .

(٢) القد : القوام . وشطر كل شىء : نصفه .

(٣) الوحى : الإشارة والإلهام . كهانة : المراد هنا السحر أو عذوبة القول ولطف الحديث لأن الكاهن يستميل من يكهن له بكلام ساحر شديد التأثير .

(٤) وجدى بها : محبتى لها . تصدر عن أمرى : تطيعه ولا تخالفه .

(٥) يجول : يطوف ويتردد . والمهندة . السيوف المطبوعة من حديد الهند وهى أجود السيوف والبتر : جمع أبتر أى نافذ قاطع .

(٦) تهللت : تلألأ وجهها وأشرق . والمهاة : البقرة الوحشية تشبه بها الحسناء فى جمال عيونها

(٧) أغراه بالشىء : أولعه به وحفزه إليه . والطلاء : الخمر وقصرت هنا للضرورة . والنحر : موضع القلادة من الصدر .

(٨) يهذى : يتكلم بغير المعقول .

(٩) صريع : مطروح على الأرض . والشهب : النجوم السبعة المعروفة بالدرارى . يسدو بكفيه : يمدهما من سدا يسدو . والنسر : كوكب معروف وهما اثنان يقال لأحدهما النسر الطائر والآخر النسر الواقع .

إذا ما دَعَوْتَ الْمَرْءَ دَار بِلَحْظِه ... إليكَ وغَشَّاهُ الذُّهُول عَن الْجَهْرِ (١)

بَعيدٌ عَن الدَّاعِي وإنْ كانَ حاضِراً ... كأَنَّ بِهِ بَعْضَ الْهَنَاتِ مِنَ الْوَقْرِ (٢)

تَحَكَّمَتِ الصَّهْبَاء فِيهِمْ فَغَيَّرَتْ ... شَمَائِلَ مَا يأْتِي بِهِ الجِدُّ بالْهَذْرِ (٣)

فَيَا سامَحَ اللهُ الشَّبَابَ وإنْ جَنَى ... عَلَيَّ وَحَيَّا عَهْدَهُ سَبَلُ الْقَطْرِ (٤)

أَلا لَيْتَ هَاتِيكَ اللَّيَالِي وقَدْ مَضَتْ ... تَعُودُ، وذَاكَ الْعَيْشُ يَأْتِي عَلَى قَدْرِ (٥)

لَعَمْرُكَ ما فِي الدَّهْرِ أَطيبُ لَذَّةً ... مِنَ اللَّهْوِ فِي ظِلِّ الشبيبة والْيُسْرِ

د — الشاعر الاجتماعى

هجاء

الهجاء الشخصى قليل فى شعر البارودى ، وقد قال فيه مقطوعات قصيرة ، وإن لم يفصح عن اسم المهجو . أما هجاؤه الاجتماعى فكثير ومن هجائه الشخصى قوله :

وصَالُكَ لِي هجرٌ وهَجْرُكَ لِي وَصْلُ ... فَزِدْنِي صُدُوداً ما استطعتَ ولا تَأْلُو (٦)

إذا كان قُرْبِي مِنْكَ بُعْداً عَنِ الْمُنَى ... فلا حُمَّتِ الْأُقْيَا ولا اجتمع الشَّمْلُ (٧)

---

(١) غشاه : غطاه وغلبه .

(٢) الهنات : جمع هنه وهى الشىء اليسير ، والوقر : ثقل فى الأذن . والمعنى كأن به شيئاً من الصمم .

(٣) الصهباء : الخمر أو المعصورة من عنب أبيض . والشمائل : الخلق والطبع . والهذر الخلط فى الكلام .

(٤) السبل : المطر الغزير المسبل كأنما أسبل ستراً أى أرسله وأرخاه . والقطر : المطر .

(٥) القدر : الغنى واليسار والقوة أو القدر : التقدير ، أى يأتى على ما أقدر وأدبر وأحب .

(٦) لا تألو : لا تقصر .

(٧) يقال حم القضاء : إذا نزل وجعل اللقيا كالمصيبة والموت . ويريد باللقيا اللقاء .

وكيفَ أَوَدُّ القُرْبَ مِنْ مُتَلَوِّنٍ ... كَثِيرِ خَبَايَا الصَّدْرِ شِيمَتُهُ الْخَتْلُ(١)

خَبُثْتَ فَلَوْ طُهِّرْتَ بالماء لا كْتَسى ... بِكَ الماء خُبْثًا لاَ يَحِلُّ به الْغُسْلُ

فوجْهُكَ مَنْحُوسٌ وَكَعْبُكَ سافِلٌ ... وقَلْبُكَ مَدْغُولٌ وعَقْلُكَ مُخْتَلُ(٢)

بِكَ اسْوَدَّتِ الأَيَّامُ بَعْدَ ضِيائِها ... وأَصْبَحَ نادِي الْفَضْلِ لَيْسَ به أَهْلُ

فَلَوْ لَمْ تَكُنْ فِي الدَّهْرِ ما انْقَضَّ حادِثٌ ... بِقَوْمٍ وَلاَ زَلَّتْ بِذِي أَمَلٍ نَعْلُ

فَمَا نَكْبَةٌ إِلاَّ وأَنْتَ رَسُولُها ... وَلاَ خَيْبَةٌ إِلاَّ وأَنْتَ لَهَا أَصْلُ

أَذُمُّ زَمَانًا أَنْتَ فِيــه وبَلْدَةً ... طَلَعْتَ عَلَيْها إِنَّهُ زَمَنٌ وَغْلُ(٣)

ذِمامُكَ مَخْفُورٌ وعَهْدُكَ ضَائِعٌ ... ورَأْيُكَ مَأْفُونٌ وعقلك مُخْتَلُّ(٤)

مَخَازٍ لو أَنَّ النَّجْمَ حُمِّلَ بَعْضَهَا ... لَعَاجَلَه مِنْ دون إِشْرَاقِه أُفْلُ

فَسِرْ غَيْرَ مأْسُوفٍ عليكَ فإنما ... قُصَارَى ذَمِيمِ الْعَهْدِ أَنْ يُقْطَعَ الْحَبْلُ(٥)

جارة صاخبة

ومن الهجاء الاجتماعى وهو ذم عيب من العيوب المنتشرة فى المجتمع قول البارودى يذم جارة كثيرة الصخب والجلبة :

إِلى اللهِ أَشْكُو طُولَ لَيْلِي وَجَارَةً ... تَبِيتُ إِلى وقْتِ الصَّبَاحِ بِإِعْوَالِ(٦)

---

(١) كثير خبايا الصدر : أى كثير الأحقاد والمضمرات من الشر . والختل : الخداع والمداهنة .

(٢) وكعبك سافل : أصل الكعب : الشرف والمجد . ويقال : أعلى الله كعبه دعاء له بالشرف مأخوذ من كعب الرمح . وقلبه البارودى هنا كناية عن الفسولة وضعف الهمة . وقلبك مدغول : فيه دغل وفساد ممتلئ بالأحقاد ، ولم يرد فى المعاجم مدغول على ما أعرف .

(٣) وغل : نذل دنىء والجمع أوغال .

(٤) الذمام : الحق والحرمة . ومخفور : منتهك . والمأفون : الضعيف الساقط .

(٥) القصارى : الجهد والغاية وآخر الأمر .

(٦) الإعوال : ارتفاع الصوت والبكاء .

لَهَا صِبْيَةٌ لاَ بَارَكَ اللهُ فيهِمُ ... قِبَاحُ النَّوَاصِى لا يَنَمْنَ عَلَى حَالِ (١)

صَوَارِخُ لا يَهْدَأْنَ إلاَّ مع الضُّحَى ... مِنَ الشَّرِّ فى بَيْتٍ مِنَ الخيرِ مِمْحَالِ (٢)

تَرَى بَيْنَهُمْ ـ يا فَرَّقَ اللهُ بَيْنَهُم ـ ... لَهِيبَ صِياحٍ يَصْعَدُ الفلكَ الْعَالى (٣)

كأَنَّهُمُ مِمَّا تَنَازَعْنَ أَكْلُبٌ ... طُرِقْنَ عَلَى حِينِ المَسَاءِ بِرِئْبَالِ (٤)

فَهِجْنَ جميعاً هَيْجَةً فَزِعَتْ لها ... كِلاَبُ القُرى ما بَيْنَ سَهْلٍ وأَجْبَالِ

فَلَمْ يَبْقَ مِنْ كَلْبٍ عَتُورٍ وكَلْبَةٍ ... مِنَ الحىِّ إلاَّ جَاءَ بالعَمِّ والخالِ

وَفُزِّعَتِ الأَنْعَامُ والْخَيْلُ فانْبَرَتْ ... تُجَاوِبُ بَعْضًا فى رُغَاءٍ وتَصْهَالِ (٥)

فَقَامَتْ رِجالُ الْحَىِّ تَحْسَبُ أنها ... أُصِيبَتْ بِجَيْشٍ ذِى غَوارِبَ ذَيَّالِ (٦)

فَمِنْ حَامِلٍ رُمْحًا وَمِنْ قَابِضٍ عَصًا ... وَمِنْ فَزِعٍ يَتْلُو الكتابَ بِإِهْلاَلِ (٧)

ومِنْ صِبْيَةٍ رِيعَتْ لِذَاكَ ونِسْوَةٍ ... قَوَائِمَ دُونَ البابِ يَهْتِفْنَ بِالْوَالى

فيارَبِّ هَبْ لى مِنْ لَدُنْكَ تَصَبُّراً ... على ما أُقاسيه وخُذْهُمْ بِزَلْزَالِ

---

(١) والنواصى : جمع ناصية ، وهى قصاص الشعر أى حيث تنتهى نبتته من مقدمة الرأس ويريد بالناصية هنا الوجه كما فى قوله تعالى : «لنسفعاً بالناصية» أى لنسودن وجهه فكفت الناصية لأنها فى مقدم الوجه . وعلى حال : على أى حال كانت .

(٢) صوارخ : جمع صارخ وصارخة . من الشر : من أجل الشر ويريد به الشجار والاشتباك . فى بيت : متعلق بصوارخ . وممحال : شديد الجدب ، عار من الخيرات .

(٣) لهيب صياح : أى صياح عال مشتعل كاللهيب .

(٤) تنازعن : اختلفن وتشاجرن ، وأكلب : جمع كلب . والرئبال : الأسد .

(٥) تجاوب بعضاً : الصحيح تجاوب بعضها بعضاً . وتصهال : مصدر من صهل الفرس (كضرب ومنع) . والرغاء : صوت ذوات الخف كالإبل ونحوها .

(٦) ذى غوارب : الغارب فى الأصل الكاهل أو ما بين السنام والعنق ، ويريد بذى غوارب أنه مرتفع عظيم . وذيال : طويل الذيل .

(٧) الإهلال : رفع الصوت .

١ ـ المراجع العربية

إلياس الأيوبى : تاريخ مصر فى عهد إسماعيل
ابن إياس الجركسى : بدائع الزهور فى وقائع الدهور
أحمد تيمور : أعيان القرن الثالث عشر
توفيق البكرى : صهاريج اللؤلؤ
جاك تاجر : حركة الترجمة فى مصر
حسين المرصفى : الوسيلة الأدبية
رشيد رضا : مجلة المنار المجلد ٨
» » : تاريخ الشيخ محمد عبده جـ ١ ، ٢
رفاعة الطهطاوى : المرشد الأمين للبنات والبنين
عبدالرحمن الرافعى : عصر إسماعيل جـ ١ ، ٢
عبد الله النديم : سلافة النديم
» » : التنكيت والتبكيت العدد الأول
على مبارك : الخطط التوفيقية جـ ١٢ ، ١٣
عمر الدسوقى : فى الأدب الحديث جـ ١ ، ٢
عمر طوسون : البعثات العلمية فى عهد محمد على ثم فى عهد عباس الأول وسعيد
محمد رفعت : تاريخ مصر السياسى
محمد عبده : الوقائع المصرية ١٨٨٠ — ١٨٨١
» » : ترجمة السيد جمال الدين الأفغانى
» » العروة الوثقى
محمود سامى البارودى : الديوان جـ ١ ، ٢ طبعة دار الكتب المصرية ، وطبعة الجريدة

٢ ـ المراجع الأجنبية

Brawne : The Persian Revolution.
P.G. Elgood : The Transit of Egypt.
Journal Asiatique, Aug. 1828
Earl Cromer : Modern Egypt
Gibb. : Modern Trends in Islam